

obeikandi.com

هَذَا كِتَابُ الْإِسْلَامِ
مِنْ قِبَلِ



هَذَا كِتَابُ الْأَمْرِ

نَزِيهِيكِي

الأستاذ الدكتور محمد عمر الحجاجي

دَارُ الْمَكِينِ

الطبعة الأولى 1431هـ - 2010م

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا

ص.ب 31426 هاتف 2248433 فاكس 2248432

e-mail: almaktabi@mail.sy


للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيد

الحمد لله الوهاب الكريم ، يختص من يشاء من عباده بفضله العظيم ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد المنعوت بأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم ، ورضي الله عن آله وصحبه أولي السيادة والتكريم . وبعد :

عندما هزم الله المشركين في معركة بدر ، وأذلّ كبرياءهم ، تنزلت آيات كريمات تكشف أسرار الهزيمة التي أصابتهم ، وتصف اللطمات التي تناولت الهالكين من كل جهة ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ وَذُفُّوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [الأنفال: ٥٠] .

لكن لِمَ هذه النهاية الفاجعة؟ ولماذا هذا الخزي المحيط؟ ..
يأتي الجواب الواضح : ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنْتَ اللَّهُ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [الأنفال: ٥١] .

هذه النتيجة جزاء عادل لأناس كرهوا ما أنزل الله ، واتبعوا شياطين الإنس والجن ، واستحلوا حرمت الضعفاء ، واختالوا على الناس بقوتهم وعلمهم ومالهم و...! يا ترى ، هل تختص هذه المسألة بمشركي مكة؟ .

أبدًا ، فالمنهزمون في بدر ليسوا بدعًا من الناس ، ولذلك بين القرآن الكريم أن ذلك دأبُ الله في جماهير الظلمة والكفرة ، مع اختلاف الزمان والمكان ، وسنة الله في العصاة لا تتخلف ؛ لأن شؤم معاصيهم لاحقٌ بهم وإن طال المدى : ﴿ كَذَّابٌ أَإِلَٰهٌ فَرَعَوْنُ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يَذُّوْبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [٥٢] ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغِيرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغِيرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٥٢ - ٥٣] .

فالتعليل فيه تدبر واعتبار : ﴿ حَتَّى يُغِيرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ ، ذلك لأن الله سبحانه لا يبدل أمن الأمم قلقًا ، ولا رخاءها شدة ، ولا عافيتها سقمًا ؛ لأن الله يحب أن يرمي الناس في الآلام والضائقات !! . أبدًا ، فهو أرحم الراحمين ؛ يعطي عباده من النعم الشيء الكثير ، ويصحبهم ويُمسِّيهم برزقه ومدده .

لكن الناس يُحسنون الأخذ ولا يُحسنون الشكر ، ويمرحون ويسكرون بنعمه ولا يقدرون المعطي المنعم سبحانه ! .

وعندما يبلغ هذا الجحود مداه ، وعندما ينعقد الإصرار عليه ، فلا ينحل بندم ولا توبة . . عندئذٍ تدقُّ قوارع الغضب أبواب الأمم . . وتُسود الوجوه بهزائم الدنيا قبل نكال الآخرة . . صحيح أن الله لا يتغير ولكن الناس هم الذين يتغيرون ، وسننه لا تتغير ولكن الناس هم الذين يبطرون : ﴿ إِنْ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١] .

صحيح أن الآيات نزلت في أهل مكة ، حيث امتنَّ الله عليهم بأمرين جليلين ؛ هما الغاية القصوى للحياة على ظهر الأرض :

١ - الشَّيْع : وهو ملاك الحريات الاقتصادية والعدل الاجتماعي .

٢ - الأَمْن : وهو ملاك الحريات السياسية والعدل السياسي .

وهذان الأمران هما اللذان تهفو إليهما الأمم ، وتسعد في ظلالهما الشعوب ، ولذلك إذا ظفرت بهما أمة ، فيجب على أفرادها أن يسارعوا إلى طاعة الله : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۚ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش : ٣-٤] .

وإن لم يفعلوا : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : ١١٢] .

(الجوع والخوف) بدل (الشيع والأمان) ، وهذه المسألة لا تختص أهل مكة فقط ، بل هي سنة من سنن الله لا تتبدل ولا تتغير : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِشَتَهَا فَنَلَكَ مَسْكَنُهُمْ لَمْ تَمْسُكْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ [القصص : ٥٣] .

هذا قانون مصارع الأمم ، وهذه سنة الله في التغيير ، وهذا هو محور الكتاب :

١ - ما قبل الإهلاك : إنذارات الله .

٢ - أسباب الإهلاك .

٣ - ما أكثر العبر . . وما أقلّ المعبرين !! .

ويعلم الله أن هذا العمل ليس إلّا وقفات مع كتاب الله . . ومع كون الله . . فإن وفقت في تقديم شيء مفيد ، فذاك من فضل الله وكرمه ، وإلا فمن النفس الأمارة بالسوء ، لكن يشفع لي أن الهدف هو ما قاله خطيب الأنبياء شعيب عليه السلام : ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود : ٨٨] .

والحمد لله رب العالمين

* * *

الباب الأول

مَا قَبْلَ الْإِهْلَاكِ

الفصل الأول: الإنذار قبل الإهلاك.

الفصل الثاني: الإهلاك تدخل إلهي.

* * *

obeikandi.com

الفصل الأول

الإنذار قبل الإهلاك

من الأمور التي ركزت الشريعة الإسلامية عليها: تحريم الظلم في كل صوره وأشكاله .

ذلك لأن من تعريف الظلم: وضع الشيء في غير موضعه .

ومن الأدلة الواضحة على تحريمه ، قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [النساء: ١٦٨ - ١٦٩] .

وقوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَزْكُوتُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمْسِكُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٣] .

وفي الحديث القدسي: عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ، قال: «قال الله تعالى: يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرماً ؛ فلا تظالموا» [صحيح مسلم: ٤/ ١٩٩٤] .

وقد أجمع الفقهاء على تحريم الظلم ، كما قال ابن الجوزي رحمه الله: الظلم يشتمل على معصيتين: أخذ مال الغير بغير الحق ، ومبارزة الرب بالمخالفة ، والمعصية فيه أشد من غيرها ؛ لأنه لا يقع غالباً إلا بالضعيف الذي لا يقدر على الانتصار ، وإنما ينشأ الظلم عن ظلمة القلب ؛ لأنه لو استنار بنور الهدى لاعتبر ، فإذا سعى المتقون بنورهم

الذي حصل لهم بسبب التقوى اكتنفت ظلمات الظلم الظالم ، حيث لا يغني عنه ظلمه شيئاً^(١) .

من هنا ولكي لا يقع الظلم على أحد، قبل أن يحدث تدمير قوم ما، أو إهلاك أمة من الأمم ، يأتيهم الإنذار الإلهي .

وذلك من أجل أن يعتبروا ويتعظوا ويعودوا إلى خطّ الهداية والرشد . . والأمثلة في ذلك كثيرة :

أولاً: من سورة الشعراء:

سورة الشعراء من السور المكية في قول الجمهور ، فيها حديث مفصّل عن قصة نبيّ الله موسى عليه السلام ، وخاصة مع الطاغية فرعون ، مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَ قَالَ أَصْحَبُ مُوسَى إِنِّي لَمَدْرُكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : ٦١ - ٦٢] .

يتبعها قصة الخليل إبراهيم عليه السلام مع قومه ، مثال ذلك قوله سبحانه : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [الشعراء : ٧٨ - ٨٢] .

ثم ينقلنا البيان الإلهي إلى إحدى اللوحات القرآنية ، والتي تتحدّث عما يحدث من مناقشات بين المتقين والغاوين ، من ذلك قول الله تعالى : ﴿ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لِنَافِلِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْأُمُجِرُونَ ﴾ [الشعراء : ٩٦ - ٩٩] .

ثم يعود السياق القرآني إلى الحديث عن مصارع الأمم التي كذّبت الرسل ، واستكبرت وتجبّرت ، ثم تمرّدت على الخالق سبحانه ؛ كقصة إغراق قوم نوح عليه السلام ، منها قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي

(١) فتح الباري ، لابن حجر العسقلاني : ١٠٠ / ٥ .

كَذَّبُونَ ﴿١١٧﴾ فَأَفْنَحْ بَنِي وَيَسَّيْنَهُمْ فَتَحَا وَيَحْيَى وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَجْبَنَتْهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ اغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿الشعراء: ١١٧ - ١٢٠﴾.

تبع ذلك حديث مستفيض عن جماعة عاد ، وكيف عاندوا نبي الله هوداً عليه السلام ، ثم إلى ما كانت النهاية الوحيدة ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاقْنُوا لِلَّهِ وَاطِيعُونَ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿الشعراء: ١٢٣ - ١٢٧﴾ .

وبعد ذلك كان الحديث عن قوم ثمود الذين عاندوا واستهزؤوا بالتعاليم التي جاء بها نبي الله صالح عليه السلام ، فكانت النتيجة هي الدمار والإهلاك ، من ذلك قول الله تعالى : ﴿ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةُ لَهَا شَرِبٌ وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَسْهَوْهَا يَسُوءُ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿الشعراء: ١٥٥ - ١٥٨﴾ .

بعد ذلك جاء الحديث عن قوم لوط عليه السلام ، حيث ابتدعوا المنكرات التي لم يعرفها السابقون ، فوعظهم لوط عليه السلام لكن دون فائدة ، بل بدل أن يتعظوا ويعودوا إلى رشدهم ، إذا بهم يطرده من بلده ، لا للذنب اقترفه إلا لأنه كان يدعو إلى الطهارة ونحو ذلك ، من ذلك قوله سبحانه : ﴿ فَجَبَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٦﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَايِينَ ﴿١٧٧﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٨﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿الشعراء: ١٧٠ - ١٧٤﴾ .

وبعد ذلك جاء الحديث القرآني عن قصة شعيب عليه السلام مع قومه ، حيث كانوا يتلاعبون بالكيل والوزن ، وكانوا يتفاخرون بالغش والخداع ، فكانت النتيجة عذاب يوم الظلة ، قال الله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ

فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ [الشعراء: ١٨٩ - ١٩٠].

وبعد ذلك كله يلتفت البيان الإلهي بالخطاب إلى مشركي مكة ، ليقول لهم بلسان الحال والمقال : كل الأمم التي سبقتكم لم يتنزل بهم العذاب ، حتى أرسل الله إليهم من ينذرهم ، وبالتالي فإذا فعلتم مثلما فعلوا ، وكذبتهم خاتم الأنبياء محمداً ﷺ ، فإن قانون العقوبات سيطبق عليكم لا محالة ، مصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ أَفَعِدَّائِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٨﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٩﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢١٠﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴿٢١١﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا هَا مُنْذِرُونَ ﴿٢١٢﴾ ذِكْرٌ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٨ - ٢٠٩].

وعلق الإمام القرطبي على هذه الآيات بقوله : قوله تعالى : ﴿ أَفَعِدَّائِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ قال مقاتل : قال المشركون للنبي ﷺ : يا محمد ، إلى متى تعدنا بالعذاب ولا تأتي به؟! .

فتزلت : ﴿ أَفَعِدَّائِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ ﴿٢٠٨﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴾ يعني في الدنيا ، والمراد أهل مكة في قول الضحاك وغيره . ﴿ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ من العذاب والهلاك .

﴿ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴾ : (ما) الأولى استفهام معناه التقرير ، وهو في موضع نصب بـ (أغنى) . و(ما) الثانية في موضع رفع .

ويجوز أن تكون (ما) الأولى نفيّاً لا موضع لها . و(ما) الثانية في موضع رفع بـ ﴿ أَغْنَى ﴾ ، والهاء العائدة محذوفة ، والتقدير : ما أغنى عنهم الزمان الذي كانوا يمتعون به .

وعن الزهري : أن عمر بن عبد العزيز كان إذا أصبح أمسك بلحيته ، ثم قرأ : ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴾ ﴿٢٠٩﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا

يُوعِدُونَ ﴿١٢٩﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿١٣٠﴾ . . ثم يبيكي ويقول :

ونهارك يا مغرور سهوٌ وغفلة وليلك نوم والردى لك لازمٌ
فلا أنت في الإيقاظ يقظانٌ حازمٌ ولا أنت في النوم ناجٍ فسالمٌ
تُسَرُّ بما يفنى وتفرحُ بالمنى كما سُرَّ باللذات في النوم حالمٌ
وتسعى إلى ما سوف تكره غبه كذلك في الدنيا تعيشُ البهائمُ

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ : ﴿ مِنْ ﴾ صلة ؛ والمعنى وما هلكنا قرية ، ﴿ إِلَّا هُمْ مُنْذِرُونَ ﴾ أي : رسل .

﴿ ذِكْرَى ﴾ قال الكسائي : ﴿ ذِكْرَى ﴾ في موضع نصب على الحال ، وقال النحاس : وهذا لا يحصل ، والقول فيه قول الفراء وأبي إسحاق أنها في موضع نصب على المصدر ، وقال الفراء : أي يذكرون ذكرى ، وهذا قول صحيح ؛ لأن معنى ﴿ إِلَّا هُمْ مُنْذِرُونَ ﴾ إلا لها مذكرون .

و ﴿ ذِكْرَى ﴾ لا يتبين فيه الإعراب ؛ لأن فيها ألفاً مقصورة ، ويجوز ﴿ ذِكْرَى ﴾ بالتثنية ، ويجوز أن يكون ﴿ ذِكْرَى ﴾ في موضع رفع على إضمار مبتدأ . قال أبو إسحاق : أي إنذارنا ذكرى ، وقال الفراء : أي ذلك ذكرى ، وتلك ذكرى .

وقال ابن الأنباري : قال بعض المفسرين : ليس في (الشعراء) وقف تام إلا قوله : ﴿ إِلَّا هُمْ مُنْذِرُونَ ﴾ ، وهذا عندنا وقف حسن ، ثم يبتدئ ﴿ ذِكْرَى ﴾ على معنى : هي ذكرى ؛ أي يذكرهم ذكرى ، والوقف على ﴿ ذِكْرَى ﴾ أجود ، ﴿ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ في تعذيبهم حيث قدّمنا الحجة عليهم وأعذرنا إليهم ^(١) .

(١) الجامع لأحكام القرآن : ١٢٩/٧ - ١٣٠ .

ثانياً: من سورة القصص:

وأما سورة القصص فهي سورة مكية ، ومنذ بدايتها نقرأ حديثاً مستفيضاً عن قصة نبي الله موسى عليه السلام مع الطاغية فرعون وكيف أن العناية الإلهية أفشلت مخططات ومكر فرعون و... ، مثلاً ذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدِّعُ آبَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ ٤١ ۝ وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ٤٢ ۝ وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ يَحْشُدُهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ٤٣ ۝ ﴾ [القصص : ٤ - ٦٦].

ثم يسرد البيان الإلهي قصة الطاغية قارون ، ويفصل بين القصتين بقانون إلهي ثابت لا يتبدل ولا يتغير ، في ظاهره حديث مختص بالمشركون - أهل مكة - الذين حاولوا بكل إمكانياتهم أن يوقفوا ويقفوا في طريق دعوة المعصوم ﷺ! .. ومن خلالهم يأتي التعميم للناس أجمعين ، يقول تعالى :

﴿ وَقَالُوا إِن نَّبِيعُ الْهُدَى مَعَكَ نُنْخِطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمَاءَ إِنَّمَا يُجِئُ إِلَيْهِ ثَمَرْتُ كُلِّ شَيْءٍ رَزَقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٥٧ ۝ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ يَنْجُ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ٥٨ ۝ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ٥٩ ۝ ﴾ [القصص : ٥٧ - ٥٩].

وفي التعليق على هذه الآيات يقول العلامة الألوسي (ت : ١٢٧٠ هـ) رحمه الله : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ أي : وكثيراً من أهل قرية كانت حالهم كحال هؤلاء من الأمن وخفض العيش والدعة ، حتى بطروا واغترؤوا ولم يقوموا بحق النعمة ، فدمرنا عليهم وخربنا ديارهم ، ﴿ فَلَبَلَكَ مَسْكِنُهُمْ ﴾ التي تمرّون عليها في

أسفاركم كحجر ثمود ؛ خاوية بما ظلموا ، حال كونها ﴿لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهَا﴾ من بعد تدميرهم ، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي : إلا زماناً قليلاً إذ لا يسكنها إلا المارة يوماً أو بعض يوم ، أو إلا سكناً قليلاً ؛ وقلته باعتبار قلة الساكنين ، فكأنه قيل : لم يسكنها من بعدهم إلا قليل من الناس .

وجوز أن يكون الاستثناء من المساكن ؛ أي : قليلاً منها سكن ، وفيه بُعد . ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ منهم ؛ إذ لم يخلفهم أحد يتصرف تصرفهم في ديارهم وسائر ذات أيديهم .

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى﴾ بيان للعناية الربانية إثر بيان إهلاك القرى المذكورة ؛ أي : وما صح وما استقام ، أو ما كان في حكمه الماضي وقضائه السابق أن يهلك القرى قبل الإنذار ، بل كانت سنته عز وجل أن لا يهلكها ﴿حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ﴾ أي : في أصلها وكبيرتها التي ترجع تلك القرى إليها ؛ ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ الناطقة بالحق ، ويدعوهم إليه بالترغيب والترهيب ، وإنما لم يهلكهم سبحانه حتى يبعث إليهم رسولاً ؛ لإلزام الحجة وقطع المexcuse بأن يقولوا : لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك ، وإنما كان البعث في أم القرى ، لأن في أهل البلدة الكبيرة وكرسي المملكة ومحل الأحكام فطنة وكياساً ؛ فهم أقبل للدعوة وأشرف .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم : عن قتادة : أن أم القرى مكة ، والرسول محمد ﷺ ، فالمراد بالقرى القرى التي كانت في عصره صلوات الله عليه ، والأولى أولى ، والالتفات إلى نون العظمة في ﴿آيَاتِنَا﴾ لتربية المهابة وإدخال الروعة ، وقرئ : (في أمها) بكسر الهمزة إتباعاً للميم .

﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ﴾ عطف على ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ﴾؛ ﴿إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال ، أي: وما كنا مهلكين لأهل القرى بعدما بعثنا في أمها رسولا يدعوهم إلى الحق ، ويرشدهم إليه في حال من الأحوال إلا حال كونهم ظالمين بتكذيب رسولنا والكفر بآياتنا ، فالبعث غاية لعدم صحة الإهلاك بموجب السنة الإلهية ، لا لعدم وقوعه حتى يلزم تحقق الإهلاك عقيب البعث^(١).

* * *

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: ٤٠١/٢٠ - ٤٠٢.

الفصل الثاني

الإهلاك تدخل إلهي!!

خلق الله سبحانه المخلوقات ، ومنهم البشر ، وشاءت حكمته أن يكون فيهم أقوياء وضعفاء ، وأغنياء وفقراء ، وسعداء وتعساء . .

وأمر الله الأقوياء والأغنياء أن يساعدوا الضعفاء والفقراء ، وحرّم عليهم الاعتداء عليهم ، وأكّد سبحانه على أن النهاية ستكون للمستضعفين ، مصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [١٠٥-١٠٦] .

لكن المشكلة في صدام الحق مع الباطل : أنه في كثير من الأحيان يتحكّم الباطل وأهله بالحق وأهله ، ويضيقون عليهم الخناق ، ويقتلون منهم الكثير ، ويضحي أهل الحق بتضحيات عظيمة ، لكن دون جدوى! .

عندئذ يأتي الفرج والنصر للمستضعفين ، وتدخل العناية الإلهية لتُنقذ ما بقي ، ويكون الدمار والهلاك على المستكبرين المعاندين .

ونسوق أمثلة على ذلك :

أولاً: من سورة إبراهيم:

وهي سورة مكية ، حيث تبدأ بحرب قوية على الكافرين الذين

لا همّ لهم إلا الوقوف في وجه الدعوات .

علماً أن الله سبحانه لم يرسل رسولاً ولا نبياً إلا بلغة قومه ، وذلك من باب إقامة الحجّة على المعاندين منهم .

ثم تستعرض السورة قصة كليم الله موسى عليه السلام مع قومه ، حيث وقفوا في طريق الدعوة ، وقدموا الغالي والنفيس في سبيل إسقاط كل ماله علاقة بالدعوة .

فما كان من موسى عليه السلام إلا أن راح يذكرهم بنعم الله وآلائه ، مع ضرب الأمثلة على ذلك ، ثم ذكرهم بما فعلته الأقوام من قبل مع الرسل ، وماذا كانت النتيجة ؟ .

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [إبراهيم : ٩] .

ثم أخبر سبحانه وتعالى عما دار بين الرسل عليهم السلام وبين المعاندين ، حيث ركّز الرسل في دعوتهم لأقوامهم على النظر والبحث والتفكير في خلق السموات والأرض ، ثم العودة إلى الأنفس وما فيها من عجائب وأسرار ! .

وما كان جواب القوم إلا استهزاء أو سخرية : أنتم بشرٌ مثلنا تحاولون أن تبعدونا عما كان عليه الآباء والأجداد ! ..

وكان ردّ الرسل : لكم الاختيار في أن تؤمنوا أو تكفروا ، ونحن ما لنا إلا التوكل على الله في كل الأمور ، وما لنا إلا الصبر على كلامكم البذيء والسيئ .

وبعد محاولات ومناقشات ، وبعد أن قدّم الرسل البراهين والحجج ، كان الردّ هو التهديد بالإخراج من البلاد .

وعندئذ جاء التدخل الإلهي ، مصداق ذلك قوله تعالى في سياق القصة: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٢﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَن خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٣﴾ وَأَسْتَفْتِحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٤﴾ مِّنْ وَرَآيِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٥﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآيِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ [إبراهيم: ١٣ - ١٧].

وفي تعليقه على هذه الآيات، يقول الحافظ ابن كثير (ت: ٧٧٤ هـ) رحمه الله: «يخبر الله تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلهم من الإخراج من أرضهم والنفي من بين أظهرهم كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به: ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا ﴾ [الأعراف: ٨٨].

وكما قال قوم لوط عليه السلام: ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّظْهَرُونَ ﴾ [النمل: ٥٦].

وقال تعالى إخباراً عن مشركي قريش: ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٦].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وكان من صنعه تعالى أنه أظهر رسوله ونصره ، وجعل له بسبب خروجه من مكة أنصاراً وأعواناً وجنداً يقاتلون في سبيل الله تعالى ، ولم يزل يرقيه تعالى من شيء إلى شيء حتى فتح له مكة التي أخرجته ، ومكّن له فيها ، وأرغم أنوف أعدائه منهم ومن سائر أهل الأرض حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً ، وظهرت كلمة الله ودينه على سائر الأديان في مشارق الأرض ومغاربها في أيسر زمان.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾.

كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كِمْنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصفافات: ١٧١ - ١٧٣].

وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَكِيدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥ - ١٠٦].

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّكَ الْأَرْضُ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وقال: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَدَرْنَا فِيهَا وَتَمَثَّلَ لَكُمْ رَيْكُ الْحَصَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

أما قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي: هذا الوعد بالتمكين لمن خاف مقامي بين يدي يوم القيامة ، وخشي من وعيدي ؛ وهو تخويفي وعذابي ، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَىٰ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤١﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠ - ٤١].

وقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦] ^(١).

ثانياً: من سورة الأنفال:

في سورة الأنفال المدنية حديث طويل عن الصراع بين حملة لواء

(١) تفسير القرآن العظيم: ١١٣/٤ - ١١٤.

الدعوة والتسامح وهم المؤمنون ، وبين حملة لواء استئصال الآخر وهم المشركون - أي: مشركو مكة - حيث فعل المشركون مع الرسول ﷺ الأعاجيب ، ابتداءً من التكذيب ، إلى السخرية والاستهزاء ، مروراً بالحصار الاقتصادي ، إلى المقاطعة الكاملة ، إلى محاولة القتل و...!!

لكن قرار الله سبحانه: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ (٧) لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ [الأنفال: ٧-٨].

ثم يتحوّل حديث السورة إلى ما حدث في معركة بدر الفاصلة ، حيث ضاقت المسألة بالمؤمنين ، فالتجؤوا بصدق إلى رافع السماء بلا عمد ، وكانت الاستجابة ، وكان المدد.

وبعد عدد من الآيات ، يتم التركيز على قانون إهلاك الأمم ، وذلك وقت المحن العصبية ، مصداق ذلك قوله تعالى:

﴿كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٥٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُ لَمْ يَكْ مُعْتِرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَيَّ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۖ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾ [الأنفال: ٥٢-٥٤].

وفي شرح أبي حيان الأندلسي (ت: ٧٥٤ هـ) لهذه الآيات:

﴿كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ... عَلِيمٌ﴾؛ قال: تقدّم تفسير نظير هذه الآية في أوائل سورة آل عمران. . ولذلك نعود إلى تفسيره في آل عمران:

﴿كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [آل عمران: ١١]: لما ذكر أن من كفر وكذب

بالله ماله إلى النار ، ولن يغني عنه ماله ولا ولده ، ذكر أن شأن هؤلاء في تكذيبهم لرسول ﷺ ، وتَرْثِبِ العذاب على كفرهم ، كشأن من تقدّم من كفار الأمم ، أخذوا بذنوبهم ، وعُذِّبوا عليها ، ونَبّه إلى آل فرعون ؛ لأن الكلام مع بني إسرائيل ، وهم يعرفون ما جرى لآل فرعون حين كَذَّبوا بموسى ؛ من إغراقهم وتصييرهم آخراً إلى النار ، وظهور بني إسرائيل عليهم ، وتوريثهم أماكن ملكهم ، ففي هذا كله بشارة لرسول الله ﷺ ، ولمن آمن به ، أن الكفار مآلهم في الدنيا إلى الاستئصال ، وفي الآخرة إلى النار ، كما جرى لآل فرعون ، أهلكوا في الدنيا ، وصاروا إلى النار في الآخرة.

... قال ابن عطية: والدأب ، بسكون الهمزة وفتحها ، مصدر دأب يدأب ، إذا لازم فعل شيء ، ودام عليه مجتهداً فيه ، ويقال للعادة: دأب ، وقال أبو حاتم: وسمعت يعقوب يذكر: (كدأب) بفتح الهمزة ، وقال لي وأنا غُلِيمٌ: على أي شيء يجوز: كدأب؟ فقلت له: أظنه من: دئب يدأب دأباً.. فقبل ذلك مني ، وتعجّب من جودة تقديري على صغري.

وآل فرعون: أشياعه وأتباعه ، ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ هم كفار الأمم السابقة ، كقوم نوح ، وقوم هود ، وقوم شعيب ، وغيرهم ، فالضمير على هذا عائِد على آل فرعون ، ويحتمل أن يعود الضمير على الذين كفروا ؛ وهم معاصرو رسول الله ﷺ ، وموضع: ﴿وَالَّذِينَ﴾ الجر عطفًا على: آل فرعون.

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [آل عمران: ١١] هذه الجملة تفسير للدأب ، كأنه قيل: ما فعلوا؟ وما فعل بهم؟ فقيل: كذبوا بآياتنا ، فهي كأنها جواب سؤال مقدر ، وجوزوا أن تكون في موضع الحال ، أي: مكذبين ، وجوزوا أن يكون الكلام تمّ عند قوله: ﴿كَذَّبَ آلَ فِرْعَوْنَ﴾ ثم ابتدأ

فقال: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا﴾ فيكون: ﴿وَالَّذِينَ﴾ ، مبتدأ ، و: ﴿كَذَّبُوا﴾ خبره ، وفي قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ ، التفات ، إذ قبله ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٠] ، فهو اسم غيبة ، فانتقل منه إلى التكلم .

﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١١] رجع من التكلم إلى الغيبة ، ومعنى الأخذ بالذنب: العقاب عليه ، والباء في: ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ للسبب .

﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [آل عمران: ١١]: فيه إشارة إلى سطوة الله على من كفر بآياته وكذب بها ، وقيل: تضمنت هذه الآيات من ضروب الفصاحة: حسن الإبهام ، وهو فيما افتتحت به ، لينبه الفكر إلى النظر فيما بعده من الكلام^(١) .

ويتابع أبو حيان تفسير الآيات بقوله :

﴿ذَلِكَ﴾ مبتدأ وخبره ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ أي ذلك العذاب أو الانتقام بسبب كذا ، وظاهر النعمة أنه يُراد به ما يكونون فيه من سعة الحال والرفاهية والعزة والأمن والخصب وكثرة الأولاد ، والتغيير قد يكون بإزالة الذات ، وقد يكون بإزالة الصفات ؛ فقد تكون النعمة أذهبت رأساً ، وقد تكون قللت وأضعفت .

وقال القاضي: أنعم الله عليهم بالعقل والقدرة وإزالة الموانع وبتسهيل السبيل .

والمقصود أن يشتغلوا بالعبادة والشكر ويعدلوا عن الكفر ، فإذا صرفوا هذه الأمور إلى الكفر والفسق فقد غيروا نِعَمَ الله على أنفسهم ، فلا جرم استحقوا تبديل النعم بالنقم ، والمنح بالمحن . . وهذا من أوكد ما يدل على أنه تعالى لا يبتدئ أحداً بالعذاب

(١) البحر المحيط في التفسير: ٣٧/٣ - ٣٨ .

والمضرة ، وأن الذي يفعله لا يكون إلا جزاءً على معاصي سلفت ، ولو كان تعالى خلقهم وخلق حياتهم وعقولهم ابتداءً للنار - كما يقوله القوم - لما صح ذلك . انتهى .

قيل : وظاهر الآية يدل على ما قاله القاضي ، إلا أنه يمكن الحمل على الظاهر ؛ لأنه يلزم من ذلك أن تكون صفة الله معللة بفعل الإنسان ومتأثرة له ، وذلك محال في بديهية العقل ، وقد قام الدليل على أن حكمه وقضائه سابق أولاً ، فلا يمكن أن يكون فعل إلا بقضائه وإرادته ، وقد أشار بالنعمة إلى محمد ﷺ ؛ بعثه رحمة فكذبوه ، فبدل الله ما كانوا فيه من النعمة بالنقمة في الدنيا وبالعقاب في الآخرة . قاله السدي .

والظاهر من قوله : ﴿ عَلَى قَوْمٍ ﴾ العموم في كل من أنعم الله عليه من مسلم وكافر ، وبرّ وفاجر ، وأنه تعالى متى أنعم على أحد فلم يشكر بدله عن النعمة بالنقمة ، وقيل : القوم هنا قريش ؛ أنعم الله تعالى عليهم ليشكروهُ ويفردوه بالعبادة ، فجحذوا وأشركوا في ألوهيته ، وبعث إليهم الرسول ﷺ فكذبوه ، فلما غيروا ما اقتضته النعمة وحدثتهم أنفسهم بأن تلك التعم من قبل أوثانهم وأصنافهم ؛ غير تعالى عليهم بنقمة في الدنيا وأعدّ لهم العذاب في العقبى .

قال ابن عطية : ومثال هذا نعمة الله على قريش بمحمد ﷺ ، فكفروا وغيروا ما كان يجب أن يكونوا عليه ، فغير الله تلك النعمة بأن نقلها إلى غيرهم من الأنصار وأحلّ بهم عقوبته . انتهى .

وتغيير آل فرعون ومشركي مكة ومن يجري مجراهم بأن كانوا كفاراً ولم تكن لهم حالة مرضية ، فغيروا تلك الحالة المسخوطة إلى أسخط منها من تكذيب الرسل والمعاندة والتخريب وقتل الأنبياء

والسَّعي في إبطال آيات الله ، فغَيَّرَ اللهُ تعالى ما كان أنعم عليهم به ،
وعاجلهم ولم يمهلهم .

وفي قول الزمخشري : ذلك العذاب أو الانتقام بسبب أن الله تعالى
لم ينبغ له ولم يصح في حكمته أن يغيّر نعمه عند قوم حتى يغيروا
ما بهم من الحال ؛ دسيسة الاعتزال .

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ لأقوال مكذّبي الرسول ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأفعالهم ؛ فهو
مجازيهم على ذلك .

﴿ كَذَّابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ . . . ظَالِمِينَ ﴾ : قال قوم :
هذا التكرار للتأكيد . وقال ابن عطية : هذا التكرير لمعنى ليس للأول ،
أو الأول : دأب في أن هلكوا لما كفروا ، وهذا الثاني : دأب في أن لم
يغير نعمتهم حتى يغيروا ما بأنفسهم . انتهى .

وقال قوم : كرّر لوجوه ؛ منها : أن الثاني جرى مجرى التفصيل
لأول ؛ لأن في ذلك ذكر إجرامهم ، وفي هذا ذكر إغراقهم ، وأريد
بالأول ما نزل بهم من العقوبة حال الموت ، وبالثاني ما نزل بهم من
العذاب في الآخرة ، وفي الأول : ﴿ يَتَأَيَّتِ اللَّهُ ﴾ إشارة إلى إنكار دلائل
الإلهية ، وفي الثاني : ﴿ يَتَأَيَّتِ رَبَّهُمْ ﴾ إشارة إلى إنكار نعم ربّاهم ،
ودلائل تربيته وإحسانه على كثرتها وتواليها ، وفي الأول اللازم منه
الأخذ ، وفي الثاني اللازم منه الهلاك والإغراق .

وقال الزمخشري : في قوله تعالى : ﴿ يَتَأَيَّتِ رَبَّهُمْ ﴾ زيادة دلالة على
كفران النعم وجحود الحق ، وفي ذكر الإغراق بيان للأخذ بالذنوب .

وقال الكرمانى : يحتمل أن يكون الضمير في الآية الأولى في
﴿ كَفَرُوا ﴾ عائداً على قريش ، وفي الأخيرة في ﴿ كَذَّبُوا ﴾ عائداً على
﴿ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ . انتهى .

وقيل : ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ هم الذين أهلكوا يوم بدر ، فيلزم من هذا

القول بأن يكون الضمير في ﴿كَذَّبُوا﴾ عائداً على كفار قريش .

وقال التبريزي : ﴿فَأَهْلَكْنَهُمْ﴾ قوم نوح بالطوفان ، وعاداً بالريح ، وثمود بالصيحة ، وقوم لوط بالخسف ، وفرعون وآله بالغرق ، وقوم شعيب بالظلة ، وقوم داود بالمسخ ، وأهلك قريشاً وغيرها بعضهم بالفزع وبعضهم بالسيف وبعضهم بالعدسة كأبي لهب ، وبعضهم بالغدة كعامر بن الطفيل ، وبعضهم بالصاعقة كأويد بن قيس . انتهى .

فيظهر من هذا الكلام أن الضمير في ﴿كَذَّبُوا﴾ و﴿فَأَهْلَكْنَهُمْ﴾ عائداً على المشبه والمشبه به في ﴿كَذَّابٍ﴾ إذ عمَّ الضمير القبيلتين ، وإنما خصَّ ﴿آلِ فِرْعَوْنَ﴾ بالذكر ، وذكر الذين أهلكوا به ؛ وهو إغراقهم ؛ لأنه انضمَّ إلى كفرهم دعوى الإلهية والربوبية لغير الله تعالى ، فكان ذلك أشنع الكفر وأفظعه ، ومراعاة لفظ (كل) إذا حذف ما أضيف إليه ، ومعناه جائزة ، واختير هنا مراعاة المعنى لأجل الفواصل ؛ إذ لو كان التركيب : (وكلَّ كان ظالماً) لم يقع فاصلة ، وقال الزمخشري : ﴿وَكُلٌّ﴾ من غرقى القبط وقتلى قريش ﴿كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي . انتهى .

ولا يظهر تخصيص الزمخشري ﴿كُلٌّ﴾ بغرقى القبط وقتلى قريش ؛ إذ الضمير في ﴿كَذَّبُوا﴾ وفي ﴿فَأَهْلَكْنَهُمْ﴾ لا يختصَّ بهما ، فالذي يظهر عموم المشبه به ؛ وهم آل فرعون والذين من قبلهم ، أو عموم المشبه والمشبه بهم^(١) .

* * *

(١) البحر المحيط في التفسير : ٣٣٧/٥ - ٣٣٩ .

الباب الثاني

أسباب الإهلاك

- الفصل الأول : تكذيب الرّسل .
- الفصل الثاني : الاستهانة بالوعيد .
- الفصل الثالث : الانغماس في الترف .
- الفصل الرابع : انتشار الفساد وكثرة المفسدين .

* * *

الفصل الأول

تكذيب الرسل

قبل الحديث عن هذا الفصل لا بد من إطلالة سريعة على هذه المسألة المهمة، ولذلك لا بد من تقسيم هذا الفصل إلى عدة مطالب، أهمها:

المطلب الأول: إطلالة على حياة الأنبياء والرسل عليهم السلام:

لا تكتمل عقيدة المؤمن وإيمانه إلا بالإيمان بالرسل وما أنزل إليهم، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرٰهِيْمَ وَإِسْمٰعِيْلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسٰى وَعِيسٰى وَالنَّبِيُّوْنَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤].

وبالتالي ، فالنبي هو: عبدٌ اصطفاه الله بالوحي إليه ، وأما الرسول فهو: النبي المكلف من قِبَل الله بتبليغ شريعته لخلقه .

وتؤكد الوقائع أن الناس في كل عصر ومصر بحاجة ماسة إلى أنبياء الله ورسله ؛ خاصة من زاوية أنهم هم الذين يرشدون الناس وينبهونهم إلى التمسك بالصرائط المستقيم ، والابتعاد عن الوقوع في الشهوات والغرائز ، وما إلى هنالك من أخلاق فاسدة ومفاهيم باطلة ..

إضافة إلى أن الناس بحاجة إلى الإنسان القدوة والأسوة، ولا يكون ذلك إلا بوجود الأنبياء والرسل ، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ

أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴿[الحديد: ٢٥].

أهم وظائف الرسول ومهامه^(١):

١ - تبليغ الشريعة الربانية للناس: قال تعالى مخاطباً خاتم الأنبياء محمد صلوات الله وسلامه عليه: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

٢ - توضيح وشرح معاني النصوص المنزلة إليهم: مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

٣ - تربية الناس على منهج الشريعة: وذلك عن طريق اتخاذ الإصلاح سبيلاً متجرداً عن الأغراض الشخصية؛ قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وعلى أن يكون أسلوب الدعوة محصوراً بالحكمة والموعظة الحسنة، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

٤ - قيادة الأمة في مجالات الدين والدنيا: ولذلك أمر الله أتباع الأنبياء والرسل بالطاعة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

(١) للتوسع يراجع: منهج القرآن الكريم في عرض وظائف رسول الله ﷺ، للمؤلف، ص ١٢٣ - ١٥٩.

وَالْيَوْمَ الْآخِرُ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿[النساء: ٥٩].

وبالتالي: فالرسول يعتبر الحاكم والقاضي ، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَن أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرُهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

٥ - الشهادة على الأمة بأنه بلغ الرسالة وقام بالنصح: مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

المطلب الثاني: نماذج من تكذيب الناس للرسول:

أورد البيان الإلهي قصصاً مفصلةً ، أو مختصرة ، عن حكايات الأنبياء والرسل مع أقوامهم ، مثال ذلك:

١ - من سورة القصص:

وهي سورة مكية ، فيها دروس كثيرة ، محورها يدور حول الاستكبار والاستضعاف في العالم ، ومطلعها تركيز على نصرة الله للمستضعفين ، قال الله تعالى: ﴿وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُكِنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥-٦].

فالله سبحانه يمنّ على الضعفاء بأنه سيقبل حالهم من الضعف والذل إلى القوة والعزة ، وذلك لأن الأيام دُول ، كما قال الشاعر:

هي الأيام كما شاهدتها دُولٌ من سرّه زمنٌ ساءنّه أزمانٌ

وبعد ذلك تأتي القصة الأولى ، وهي قصة كليم الله موسى عليه السلام ، حيث نجد أكثر من أربعين آية تروي تفصيلات ما جرى معه منذ الصغر، مروراً بمرحلة الفتوة والشباب ، إلى وروده ماء مدين

وتعرّفه على ابنة نبيّ الله شعيب عليه السلام ، ثم زواجه منها . . .

ولما جاءه الأمر الإلهي بأن يبلغ الرسالة لفرعون ، حدث ما حدث ، حيث لم يتقبل فرعون ذلك ، وهو الذي ادعى الربوبية !! .

وهكذا كُذّب موسى عليه السلام ، فحدث الصدام بين الحق والباطل ، وشاء الله النصر للحق والهزيمة للباطل وأعوانه ، مصداق ذلك قوله تعالى في معرض القصة : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرٍ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَى ﴾ [القصص: ٣٦] .

أجل ! إن طغيان فرعون وجنوده منعهم من سماع صوت المستضعفين ، وبالتالي فتكذيبهم للرسول عجل لهم النهاية ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأْتِيَهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطَّيْنِ فَأَجْعَلْ لِّي صَرْحًا لَعَلِّي أَطْلُعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٣٨) وَأَسْتَكْبِرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاُنظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ [القصص: ٣٨-٤٢] .

والعجيب أن الطاغية فرعون عاقبه الله تعالى بالشيء الذي تباهى به ! حيث افتخر بقصوره وأنهاره و . . . فأغرقه الله بالماء ! .

قال تعالى : ﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَنْفَوِرَ إِلَيْكُمْ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ . . . إلى أن قال : ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَتْسِقِينَ ﴾ (٥٤) فَلَمَّا أَسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَافًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴾ [الزخرف: ٥١-٥٦] .

والشيء الرائع في المسألة أنه وبعد انتهاء القصة في السورة ، يأتي القانون الذي يهلك الله الأمم بسببه ، وفيه يقول تعالى : ﴿ وَكَمْ

أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِكَ بَطَرْتَ مَعِيشَتَهَا فَنِلْتَ مَسْكِنَهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا
وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَارِ سُؤْلًا يَنْلُوا عَلَيْهِمْ
ءَايَاتًا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾ [القصص: ٥٨ - ٥٩].

وبعد قليل من الآيات يأتي الحديث عن الطاغية قارون: حيث كان رجلاً من أتباع نبي الله موسى عليه السلام ، وشاء الله أن يبتليه بالمال كما ابتلى فرعون بالمنصب ، ولكن بدل أن يشكر الله على نعمه ، إذا به يطغى بالمال ويتكبر ، ويتجبر على عباد الله .

فنصحه الناصحون مراراً وتكراراً ، وطلبوا منه أن لا يفرح فرح الكبر والبطر والاستعلاء على عباد الله ، وذكره بالفقراء والمحتاجين والمستضعفين ، لكن دون جدوى .

ووصل به الحال إلى تكذيب رسول الله موسى عليه السلام ، فكانت النتيجة أن عاقبه الله عقوبة كبيرة ، قال تعالى في معرض القصة: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ دُؤْبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَدْ رَوْنَاهُ لَدُوًّا حَظٌّ عَظِيمٌ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ نَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الْغَائِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ فَتَةٍ يَصُورُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ [القصص: ٧٧ - ٨١].

والجميل مرة أخرى أن أواخر السورة مرتبط بمطالعها! .. ففي مطالع السورة حديث رائع عن أن الله سيمكن لأهل الحق المستضعفين ويورثهم ملكوته ، وسيخزي الظالمين المكذبين لرسول الله وكتبه ، وفي خواتيم السورة أيضاً قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْأَمْثَلُ الْآخِرَةُ لِمَن كَانَ لِرَبِّهِمْ

عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ [القصص: ٨٣].

٢ - من سورة هود عليه السلام:

وهي سورة مكية ، فيها قصص بعض الأقسام السابقين ، وكيف أرسل الله إليهم الأنبياء والرسل ، وكيف وقفوا منهم موقف العناد والتكبر والتكذيب ، ومن تلك القصص قصة نوح عليه السلام :

بعد مرور قرون على آدم عليه السلام ، حيث عُبِدَت الأصنام والطواغيت ، وانتشر الفساد وعمّ البلاء ، عندئذ بعث الله شيخ الأنبياء نوحاً عليه السلام ، فراح يدعوهم إلى نبذ الأصنام والتوجه إلى عبادة الواحد الأحد سبحانه ، لكن القوم كانوا سيئين ، فما آمن معه إلا قليل ! .

وطال زمن الدعوة ، حتى بلغ ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وما زاد عدد الذين آمنوا عن الثمانين ! .

لقد دعاهم سرّاً وجهراً ، ليلاً ونهاراً ، ترغيباً وترهيباً ، ولكن دون جدوى ! . . فما كان منه إلا أن توجه إلى الله بالدعاء عليهم .

فجاءه الأمر أن يصنع سفينة ، لكن القوم راحوا يستهزئون بعمله وبمن آمن معه من القلة والضعفاء .

وكانت النتيجة الحتمية لتكذيبهم أن حدث الطوفان فأغرقهم أجمعين . . وفي معرض القصة يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِتِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرِيكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرِيكَ أَن تَبْعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرِي لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [هود: ٢٥-٢٧].

وفي سورة أخرى آيات قرآنية تتحدث عن مصرع قوم نوح

بالطوفان ، وكيف كان التجاء نوح عليه السلام إلى ربه ، وكيف استجاب الله له ودمر القوم الكاذبين ، قال تعالى : ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ (٢١) إِنَّهُ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ حِجَّةٌ فَرِصُوا بِهِ حَتَّى جِئَ ﴿ ٢٥ ﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ ﴿ ٢٦ ﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿ [المؤمنون : ٢٤ - ٢٧] .

... وبعد ذلك ينتقل الحديث القرآني إلى قصة نبي الله هود عليه السلام ؛ حيث أرسله الله تعالى إلى قوم عاد ، فدعاهم إلى التوحيد ، وأعلمهم بكل صراحة أنه لا يتبغي من دعوته مالا ولا منصبا ولا أجرا ، إنما يتبغي الأجر من الله سبحانه ، ولكن القوم عاندوا . . . وكذبوا . . . واستهزؤوا به وبمن آمن به ، وعند ذلك جاءت العقوبة الربانية عن طريق أحد جنود الله ؛ وهي الريح الصرصر العاتية ، فدمر البيوت عليهم ، وفي سياق القصة يقول الله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ (٥٩) وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدَ إِعَادٍ قَوْمٌ هُودٌ ﴿ [هود : ٥٩ - ٦٠] .

... وبعد ذلك ينتقل الحديث القرآني إلى قصة نبي الله صالح عليه السلام ، حيث أرسله الله تعالى إلى قوم ثمود ، فدعاهم إلى التوحيد ، وطالبهم بنذر الأصنام والأنداد ، وقدم لهم دليلا هي الناقة ، وحذرهم من إيذائها أو قتلها ، لكن القوم عاندوا وكذبوا واستهزؤوا ، ثم أقدموا على قتل الناقة تحديا ، وعند ذلك أرسل الله عليهم الصيحة من السماء والرجفة من الأسفل ، فسكنت الأجساد وتحولت إلى جثث هامدة ، وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ

ثُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿٦٦﴾ قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٦٧﴾ قَالَ يَنْقُورُ آرَاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ كُنْتُ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ رَبِّي وَآتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٨﴾ وَيَنْقُورُ هَذِهِ نَافَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٩﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٧٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَنَيْنَا صَلْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٧١﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّبِيحَةَ فَاصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَنَاحِمٌ ﴿٧٢﴾ كَانُوا يَنْتَوُونَ فِيهَا إِلَّا إِنْ تَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِإِثْمُودَ ﴿هود: ٦٦ - ٦٨﴾ .

... وبعد قليل يأتي الحديث عن قصة لوط عليه السلام ، حيث أرسله الله تعالى إلى قوم فجرة ، فقد ابتدعوا فاحشة إتيان الذكران من العالمين ، وتركوا الزواج الفطري الحلال ، وقطعوا السبل ، وتباهوا بالمنكرات! .. فدعاهم نبي الله لوط عليه السلام إلى عبادة الله وحده ، وحذّرهم من المنكرات والفواحش ، وبدل أن يعودوا إلى رشدهم ، ويخرجوا من غيهم وطغيانهم؛ تبجّحوا وتطاولوا على النبي ومن معه ، وأعلنوا تكذيبهم له ، عند ذلك جاء التهديد.. ثم جاء الوعيد، حيث أمر الله الجبار جبريل أن يقتل بلادهم ، ثم يرفعها إلى الأعلى ثم يتركها! .

وبعد ذلك أمطرهم بحجارة صلبة ، حتى أبادها عن بكرة أبيها ، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰ سَافِلِهَا وَأَمَّطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿هود: ٨١ - ٨٣﴾ .

... وبعدها يأتي الحديث عن قصة نبي الله شعيب عليه السلام ،

حيث أرسل إلى أهل مدين ، حيث كانوا يخيفون المارة ويقطعون السبيل ويعبدون شجرة من الأيك ، وكانوا يبخسون المكيال والميزان ويطففون فيهما ، ويأخذون بالزائد ، ويدفعون بالناقص ! .

وراح شعيب عليه السلام يدعوهم إلى نبذ كل الفواحش وخاصة الغش والتطفيف ، فما كان منهم إلا العناد والتكذيب ، وكانت النتيجة عقوبة من الله سبحانه ، وذلك بأن سلط عليهم الرجفة والزلازل الشديدة إضافة إلى الحر الشديد ، وفي سياق القصة يقول الله تعالى : ﴿ قَالُوا يَسْعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ ۝١١﴾ قَالَ يَنْقُورُ أَرَهْطَىٰ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ۝١٢﴾ وَيَنْقُورُ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ۝١٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بِجَنَّتِنَا شَعِيبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَاتَّخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِئَرِهِمْ حَنِثِينَ ۝١٤﴾ كَانُوا لَرَّ يَغْتَوْنَهَا الْأَبْعَادَ لِمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ ثُمُودُ ۝﴾ [هود : ٩١ - ٩٥] .

أجل ! . . في بدايات سورة هود تأكيد على القانون القرآني ، حيث إن كل المكذبين للأنبياء والرسل ، ستكون نتيجةهم الحتمية التدمير والإهلاك ، مصداق ذلك قول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ۝١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝١٩﴾ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا لَهُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَآءَ يُضْعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ۝٢٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۝﴾ [هود : ١٨ - ٢١] .

وفي ذلك تأكيد على أن أحد أهم أسباب إهلاك الأقوام بعدهم عن

المنهج القويم ، وتكذيبهم للأنبياء والرسل .

حيث إن الله تعالى يعاقب المكذبين والظالمين والمتمردين ،
فذلكم فرعون الذي تفاخر بالأنهار ، أغرقه الله بالنهر العظيم! ..
وذلكم قارون طغى بالمال وتناول على خلق الله ، فحسف الله به
الأرض وبمن معه! .. وهذا لا ينحصر في الأقوام البائدة ، إنما هو
أمر متجدد في كل زمان ومكان ، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ قَدْ
مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ
السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
يُخْرِجُهُمْ . . . ﴿ [النحل : ٢٦-٢٧] .

وقوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ تُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴾ (١٦) ثُمَّ تُنْعِمُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ
نَفْعِلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿ [المرسلات : ١٦-١٨] .

ثم في خواتيم السورة ، وذلك بعد الحديث التفصيلي عن طائفة
من الأقوام التي دمرها الله تعالى ، يأتي الحديث عن سُنَّةِ الله في
المكذبين والظلمة ، يقول الله تعالى: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ
مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ (١٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ
الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا تَنْبِيهٌ ﴿١١﴾ وَكَذَلِكَ
أَخَذُ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿ [هود : ١٠٠-١٠٢] .

* * *

الفصل الثاني

الاستهانة بالوعيد!!

وهذا واحدٌ من الأسباب التي تؤدي إلى إهلاك الشعوب والأمم ، وقد ذكر لنا البيان الإلهي نماذج من حياة الأقوام ، مثال ذلك :

أولاً: قصة ثمود مع النبي صالح عليه السلام:

ذلك أن الله تعالى عندما أرسل نبيّه إلى جماعة ثمود ، دعاهم إلى عبادة الله سبحانه ، وقَدَّم لهم الحجج والبراهين والبيّنات ، واتفق معهم على قسمة الماء بينهم وبين الناقة ، ولكن الصراع بين الحق والباطل مستمر ، فالفريق الأول متمسكٌ بالإيمان واتباع النبي صالح ، والفريق الثاني مستكبر معاند ، متمسك بما كان عليه الآباء والأجداد! .

وفي سياق القصة يقول سبحانه : ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أَثْنَانَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ٧٧ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ٧٨ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورُ لَقَدْ أَتَلَفْتُكُمْ رَسُولَةَ رَبِّي وَفَضَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ التَّنْصِيحَ ﴾ [الأعراف : ٧٧-٧٩] .

وعلق الإمام القرطبي على هذه الآيات بقوله :

قوله تعالى : ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ ﴾ العقر : الجرح ، وقيل : قطع عضو يؤثر في النفس ، وعقرت الفرس : إذا ضربت قوائمها بالسيف ..

وقد اختلف في عاقر الناقة على أقوال ، أصحّها ما في «صحيح

مسلم: من حديث عبد الله بن زمعة ، قال: خطب رسول الله ﷺ فذكر الناقة وذكر الذي عقرها ، فقال: «إذ انبعث أشقاها ، انبعث لها رجل عزيز عارم منيع في رهطه مثل أبي زمعة» [صحيح مسلم: (٢٨٥٥)].

وقوله تعالى: ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: استكبروا ، عتا يعتو عتوا؛ أي: استكبر ، وتعتى فلان: إذا لم يُطع ، والليل العاتي: الشديد الظلمة.

﴿وَقَالُوا لَيَصْلِحُنَّ أَمْرُنَا بِمَا تَعْدُنَا﴾ أي: من العذاب.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ أي: الزلزلة الشديدة ، وقيل: كانت صيحة شديدة خلعت قلوبهم.

﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ﴾ أي: بلدهم ، وقيل: وُحِدَ على طريق الجنس، والمعنى: في دورهم ، وقال في موضع آخر: ﴿فِي دِيَارِهِمْ﴾ [هود: ٦٧] أي: في منازلهم.

﴿جَحِشِينَ﴾ أي: لاصقين بالأرض على رُكبتهم ووجوههم ، كما يجثم الطائر ، أي: صاروا خامدين من شدة العذاب ..

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ أي: عند اليأس منهم ، ﴿وَقَالَ يَنْفَوِرُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ يحتمل أنه قال ذلك قبل موتهم ، ويحتمل أنه قاله بعد موتهم ، كقوله صلوات الله عليه لقتلى بدر: «هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟» فقل: أتكلّم هؤلاء الجيف؟ فقال: «ما أنت بأسمع منهم ، ولكنهم لا يقدرّون على الجواب» [صحيح البخاري: (٣٩٧٦)].

﴿وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ﴾ أي: لم تقبلوا نصحي^(١).

(١) باختصار من الجامع لأحكام القرآن: ٢١٧/٤ - ٢١٨.

ثانياً: قصة بني إسرائيل مع نبي الله موسى عليه السلام:

... وفي قصة نبي الله موسى عليه السلام نرى قريباً مما حدث في قصة صالح عليه السلام ، حيث استكبر قومه وعاندوا وطلبوا - وهم بنو إسرائيل - من موسى عليه السلام أن يأتيهم بالآيات ، فإنهم مصرّون على العناد والكفر ، حتى إذا حلّ بهم البلاء وأنزل الله عليهم الجراد والقمل ونحو ذلك ، عند ذلك طلبوا من موسى عليه السلام أن يدعو الله لهم على أساس أنهم سيعودون إلى الإيمان ، لكنهم كانوا كاذبين ، وفي سياق القصة يقول الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِينَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لَتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٣٦) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَاءَ ابْتُذِرْ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿ ١٣٧ ﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَسَىٰ آدَعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿ ١٣٨ ﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلَغُوهُ إِذَا هُم يَنْكُتُونَ ﴿ ١٣٩ ﴾ فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿ ١٤٠ ﴾ [الأعراف: ١٣٢ - ١٣٦].

ثالثاً: مع نبي الله شعيب عليه السلام:

حيث كذبه قومه ، ثم تحدّوه قائلين: هانحن ننتظر ما وعدتنا به من العذاب ، فافعل ما بدا لك إن كنت صادقاً بما تزعم !! .

وفي سياق القصة يقول تعالى على لسانهم: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَذِبِينَ ﴿ ١٨٦ ﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِمَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿ ١٨٧ ﴾ قَالَ رَبِّیْ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿ ١٨٨ ﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُم عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿ ١٨٩ ﴾ [الشعراء: ١٨٥ - ١٨٩].

ويعلق الشيخ محمد متولي الشعراوي رحمه الله على هذه الآيات بقوله: قوله تعالى: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾: مسحّر ، أي: سحره

غيره ، وهي صيغة مبالغة للدلالة على حدوث السحر ووقوعه عليه أكثر من مرة ، فلو سحر مرة واحدة لقلنا: مسحور ، والمعنى: أنت مختل العقل والتفكير ، مجنون ، لن نسمع لك .

﴿ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ وما دُمت أنت بشراً مثلنا ، ولم تتميز عنا بشيء ، فكيف تكون رسولاً؟! .. ثم ﴿ وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أي: وما نظنك إلا كذاباً ، كالذين سبقوك! .

﴿ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أي: إن كنت صادقاً ﴿ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ يطلبون العذاب ويستعجلونه ، كما قال سبحانه في آية أخرى: ﴿ قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَأَفَّكًا عَنْ ءِهْمِنَا فَأِئْنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الأحقاف: ٢٢] .

ومن العجيب حين ينزل بهم العذاب يقولون: أنظرنا! كيف وأنتم الذين استعجلتم العذاب!؟ .

ومعنى ﴿ كِسْفًا ﴾ مفردها كِسْفَةٌ ، مثل قِطْع وقطعة ، وقد وردت هذه الكلمة على السنة كثير من المكذبين ، وقال الكفار للنبي محمد ﷺ: ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٌ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۚ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بَالَهُهٖ وَالْمَلَائِكَةُ قَيْلًا ﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٢] .

وقالوا: ﴿ اَللّٰهُمَّ اِنْ كَانَ هٰذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَاَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ اَوْ اَتَيْنَا بِعَذَابٍ اَلِيْمٍ ﴾ [الأنفال: ٣٢] .

وكان عليهم أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ، وهذا يدل على حمقهم وعنادهم .

﴿ قَالَ رَبِّ اَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ ﴾ فهو سبحانه العليم بكم ، إن كنتم أهلاً للتوبة والندم والأمل ، بأن تتوبوا ؛ فلن يصيبكم العذاب ، أو كنتم مُصْرِينَ على العصيان والتكذيب ، فسوف يصيبكم عذاب الهلاك

والاستئصال ، فأنا لن أحكم عليكم بشيء ، لأنني بشرٌ مثلكم لا أعرف ما في نياتكم ، لذلك سأكل أمركم إلى ربكم عز وجل الذي يعلم أمري وأمركم ، وسري وسركم .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ فكيف يكذبونه ، وهو لم ينسب الأمر لنفسه ، ووكلمهم إلى ربهم؟! .. إذن : فهم لا يكذبونه إنما يكذبون الله ، لذلك يأتي الجزاء : ﴿ فَأَخَذَهُمُ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ﴾^(١) .

* * *

(١) باختصار من : تفسير الشعراوي : ١٧ / ١٠٦٧٧ - ١٠٦٧٩ .

obeikandi.com

الفصل الثالث

الانغماس في الترف!

عرّف العلماء الترف بأنه: مجاوزة حدّ الاعتدال في التمتع بنعمة أو أكثر من النعم التي يحصل بها الترف.

ومن مظاهر الترف: التفاخر بالملبس ، والتباهي بالمطعم ، والتفاخر بالمسكن وأثاثه ، والتباهي بحفلات الأعراس ونحوها . . .

لكن الطامة الكبرى أن للترف آثاراً وخيمة ، منها: ضعف الأمم والشعوب ، حيث يغرق المترفون بالمفاسد ، وتكثر المظالم ، وتنتشر الديانة ، ويفشو في المجتمع مرض التكبر ، و . . . !

أولاً: قارون وعاد وسبأ وعاقبة ترفهم:

وما قصة قارون وتكبره على عباد الله ، ثم العقوبة التي حلت به وبزينته وما يملك عنا ببعيد! .

ومثلها ما حدث لقوم عاد ، حيث عاشوا النعيم والترف والبسطة في الأموال والأجسام ، وعاشوا أيضاً في قصور وبساتين ، وسكنوا البيوت التي نحتوها في الصخور ، وأجروا المياه . . ثم بدل أن يحمدا الله على نعمه ويشكروه على ذلك ، جحدوا وكفروا وعصوا رسوله ، فكانت عاقبتهم اللعنة والعذاب إلى يوم الدين! .

ومثلها أيضاً ما حدث لجماعة سبأ ، حيث منّ الله عليهم بالخير

العميم ، والرزق الوافر ، والنعم الكثيرة ، والرخاء الممدود . . .

فما كان منهم إلا أن نسيان المنعم سبحانه والاشتغال بالنعم ، وتفاخروا بذلك إلى درجة الطغيان والظلم ، مصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لِمَ بَلَدَهُ طَبِيبُهُ رَبُّهُ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَاعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكَفُورُ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا فَرْقًى ظَهَرَ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَبِيلًا فِيهَا لِيَالِي وَإِيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿سبأ : ١٥ - ١٩﴾ .

أجل ! فقد حدثنا القرآن الكريم عن بعض ما يدور حول الترف وأسبابه ونتائجه ، وجاء التركيز في ذلك على أنه أحد الأسباب المهمة والخطيرة في تدمير الأفراد والشعوب والأمم ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ لِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿الإسراء : ١٦ - ١٧﴾ .

وفي التعليق على هذه الآيات يقول سيد قطب رحمه الله تعالى : «المترفون في كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين ، الذين يجدون المال ويجدون الخدم ويجدون الراحة ، فينعمون بالدعة وبالراحة وبالسيادة ، حتى تترهل نفوسهم وتأسن وترتع في الفسق والمجانة ، وتستعثر بالقيم والمقدسات والكرامات ، وتبلغ في الأعراض والحرمان ، وهم إذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم عاثوا في الأرض فساداً ، ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوها ، وأرخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها ولها ، ومن ثم تتحلل الأمة وتسترخي ، وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها ، فتهلك وتطوى صفحاتها ، والآية تقرّر سنة الله هذه ، فإذا قدر الله لقريّة أنها هالكة ؛ لأنها أخذت

بأسباب الهلاك فكثر فيها ، فعمّ فيها الفسق ، فتحللت وترهلت فحقت عليها سنة الله ، وأصابها الدمار والهلاك ، وهي المسؤولة عما يحلّ بها ؛ لأنها لم تضرب على أيدي المترفين ، ولم تصلح من نظامها الذي يسمح بوجود المترفين ، فوجود المترفين ذاته هو السبب الذي من أجله سلطهم الله عليها ففسقوا ، ولو أخذت عليهم الطريق فلم تسمح لهم بالظهور فيها ما استحقت الهلاك ، وما سلط عليها من يفسق فيها ويفسد فيقودها إلى الهلاك .

إن إرادة الله قد خلقت للحياة البشرية نواميس لا تتخلف ، وسنناً لا تتبدل ، وحين توجد الأسباب تتعدد النتائج فتنفذ إرادة الله وتحقّ كلمته ، والله لا يأمر بالفسق ، لأن الله لا يأمر بالفحشاء ، لكن وجود المترفين في ذاته دليل على أن الأمة قد تخلخل بناؤها ، وسارت في طريق الانحلال ، وأن قدر الله سيصيبها جزاء وفاقاً ، وهي التي تعرّضت لسنة الله بسماعها للمترفين بالوجود والحياة^(١) .

وفي سورة أخرى يحدثنا البيان الإلهي عن موقف المترفين مع الرسل والرسالات ثم عن أثر الترف في الدول والشعوب ، فيقول الله سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ أُولَٰئِكَ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَأَنقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظَرْ كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الزخرف : ٢٣ - ٢٥] .

ثانياً: الترف في دولتي فارس والروم:

ولو عدنا إلى التاريخ لرأيناه يتحدث بأفصح اللغات عن أن الترف هو معول هدم للطاقات والقدرات ، مثال ذلك :

(١) في ظلال القرآن : ٢٢١٧/٤ .

دولتا الفرس والرومان كانتا القوتين العظميين في غابر الأزمان ، وبلغتا من النعم والترف الشيء الكثير ، وقد ذكر أبو الحسن الندوي طائفة من ذلك ، مثلاً قوله : «استحوذت على الناس في الدولتين الفارسية والرومية حياة الترف والبذخ ، وطغى عليهم بحر المدنية المصطنعة والحياة المزوّرة ، وغرقوا فيه إلى أذقانهم ، فكان ملوك فارس والروم وأمراء الدولتين سادرين في غفلتهم ، لا همّ لهم إلا اللذة والتهايم الحياة ، وبذخوا بذخاً عظيماً تخطى القياس ، ودققوا في مرافق المعيشة وفضول المدنية وحواشي الحياة تدقيقاً عظيماً جداً ، فكان لكسرى أبرويز اثنا عشر ألف امرأة!! وخمسون ألف جواد ، وشيء لا يحصى من أدوات الترف والقصور الباذخة ، ومظاهر الثروة والنعمة وقد وجد العرب قبباً تركية مملوءة سلالاً مختمة بالرصاص ، قال العرب : فما حسبناها إلا طعاماً ، فإذا هي آنية الذهب والفضة! » .

ويتحدث عن الدولة الرومية في بلاد الشام ، فيقول : « . . . وكان الأمراء والأقيال - أي : الرؤساء - والأغنياء ورجال البيوتات الشريفة ، وأفراد الطبقة الوسطى ، على آثار الملوك ، يحاولون أن يقلدوهم في لباسهم وطعامهم ومجالسهم وترفهم ، وكانوا يأخذون أنفسهم بعاداتهم ومناهج حياتهم ، وارتفع مستوى الحياة ارتفاعاً عظيماً ، وتعقدت المدينة تعقداً عظيماً ، وصار الواحد ينفق على نفسه وعلى جزء من لباسه ما يشبع قرية أو يكسو قبيلة . . . ودرج الناس على هذه المدنية المترفة وعاداتها الفاسدة ، ورضعوا بلبانها ، ونشؤوا عليها . . . وشق عليهم أن يتنازلوا إلى الحياة الطبيعية البسيطة حتى في ساعة عصبية ، وفي فقر واضطرار ، ذكروا أن يزدجرد آخر ملوك فارس لما فرّ من المدائن أخذ معه ألف طاهٍ ، وألف مغنٍّ ، وألف قيمٍ للنمر ، وألف قيمٍ للبراة - أي : للصقور . . . وآخرين ، وكان يستقل هذا العدد! . . . واستسقى الهرمزان ملك الأهواز أمام عمر رضي الله عنه ،

فأتي له بالماء في قدح غليظ ، فقال : لو مكّ عطشاً لم أستطع أن أشرب في مثل هذا ، فأتي له به في إناء يرضاه!!»^(١).

ثالثاً: الترف في دولة الأندلس الإسلامية:

ومثلها ما حدث في دولة الأندلس الإسلامية ؛ فقد أنفقوا الأموال الطائلة على تشييد البنيان ، حتى ارتكبت في سبيل ذلك المظالم ، ومما يؤسف له أن تكون العناية بالحجر أكثر منها بالبشر!! .

لقد بنى عبد الرحمن الداخل مدينة الزهراء ، حيث قسم جباية الدولة إلى ثلاثة أثلاث : ثلث للجند ، وثلث للبناء ، وثلث مدخر ، وقد استنفدت الزهراء ثلث إيراد الدولة لمدة (١٧) سنة ، ولم يتم بناؤها نهائياً إلا بعد أربعين سنة ، وانشغل الخليفة وولي عهده بها انشغالاً عظيماً ، وجلب الخليفة لها الرخام من تونس وقرطاجنة في إفريقية ، ثم دارت الأيام فلم تعمر مدينة الزهراء أكثر من ستين عاماً ، حيث ابتدأ الخراب في أيام الفتن التي أصابت آخر الدولة الأموية ، ثم انمحت شيئاً فشيئاً ، حتى صارت اليوم يبحث عنها بوسائل الحفريات الحديثة!! .

إضافة إلى الإسراف في طلب المال وإنفاقه إلى حد كبير مهلك ، وعلى حدّ تعبير الدكتور عبد الحليم عويس : «كان التكاليف على المادة ومظاهر الثراء والبذخ ، هي السمات الغالبة على الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الأندلس . . وكان هذا النمط من الحياة سبباً من أسباب قيام الفتنة الطائفية التي مزّقت وحدة المسلمين إلى (٢٢) دولة!!» .

«وكان الناس يجهّزون بناتهم بمبالغ ضخمة ومظاهر فخمة ، حتى إن المنصور بن أبي عامر قد قصده أحد الوجهاء لطلب مال يجهّز به

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ ص ٧٠ - ٧٤ .

ابنته ، فملاً ابن أبي عامر حجره بالمال !! .

وكان كثير من الأثرياء في قصورهم معتكفين على الموسيقى والفتيات الحسان ، وينفقون في سبيل ذلك المبالغ الطائلة ، حتى صارت الأسر الغنية لا تكاد همومها تتجاوز الاهتمام بمجالس الأُنس والشراب والزهور والنساء والغلمان^(١) .

كل هذا أدى إلى ضعف الشعب وسقوط المدن الأندلسية ، واحدة تلو أخرى ، ومثلها حدث في دولة بني العباس .

رابعاً: الترف في دولة بني العباس:

فقد كانت دولة فتية قوية في بداياتها وأيام ازدهارها ، لكن لما آل الأمر إلى البذخ والترف ، كانت النتيجة الحتمية الضعف والهوان ، إلى درجة السقوط ، خاصة أمام حملات التتار ، مثال ذلك :

عقد الخليفة المأمون (ت : ٢١٨ هـ) على بوران بنت الحسن بن سهل وزيره ، فكان عرساً لا مثيل له ! .

حيث جرت تلك الحفلة في منازل الحسن بن سهل السرخسي ، التي كانت بقم الصلح بالقرب من مدينة واسط ، وفم الصلح اسم نهر كبير كان فوق واسط ، عليه عدة قرى ، وفيه كانت دار الحسن بن سهل وزير المأمون ، وفيه بنى المأمون ببوران ، تزوجها المأمون لمكانة أبيها عنده ، واسمها الحقيقي خديجة ، وبوران لقبها ، احتفل أبوها وعمل من الولائم والأفراح ما لم يعهد مثله في عصر من عصور الجاهلية والإسلام ، فقد سافر المأمون وحاشيته ورجال دولته من القواد والكتاب والوجوه إلى فم الصلح ، فثر الحسن بن سهل بنادق المسك على رؤوسهم ، فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوارٍ وصفات

(١) التكاثر المادي وأثره في سقوط الأندلس ، ص ٢١١ - ٢١٤ .

دواب وغير ذلك ، فكانت البندقة إذا وقعت في يد الرجل فتحها ، فيقرأ ما في الرقعة ، فإذا علم ما في الرقعة مضى إلى الوكيل المرصد لذلك ، فيدفعها إليه ويتسلم ما فيها ، سواء كان ضيعة ، أو ملكاً آخر ، أو فرساً ، أو جارية ، أو مملوكاً . . ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر ، وأنفق على المأمون وقواده وجميع أصحابه وسائر من كان معه من أجناده وأتباعه ، وكانوا خلقاً لا يُحصى ، حتى على الجمالين والمكارية والملاحين وكل من ضمه عسكره ، ولم يكن في العسكر من يشتري لنفسه ولا لدوابه ! .

وذكر الطبري أن المأمون أقام عند الحسن تسعة عشر يوماً ، يعدُّ له في كل يوم ولجميع من معه ما يحتاج إليه ، وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين ألف درهم! . . وفرش الحسن للمأمون حصيراً منسوجاً بالذهب ، فلما وقف عليه نثرت على قدميه لآلى كثيرة! .

وقال الطبري أيضاً: دخل المأمون على بوران الليلة الثالثة من وصوله إلى قم الصلح ، فلما جلس معها نثرت عليها جدتها ألف درّة كانت في صينية ذهب ، فأمر المأمون أن تجمع ، وسألها عن عدد الدرّ: كم؟ فقالت: ألف حبة ، فوضعها في حجرها وقال لها: هذه نِخلُك - أي: عطيتك - ، وسلي حوائجك ، فقالت لها جدتها: كلمي سيدك فقد أمرك .

فسأله الرضا عن إبراهيم بن المهدي ؛ عمه ، والسماح بالحج لأُم جعفر ، وهي الست زبيدة ، فقال: قد فعلت ، فألبستها أم جعفر البدلة اللؤلؤية ، وأوقدوا في تلك الليلة شمعة عنبر وزنها أربعون مثاقيل في تَوْر من ذهب - أي: في إناء من ذهب - فأنكر المأمون ذلك عليهم ، وقال: هذا إسراف!! .

وقد كانت حياة العباسيين مليئة بالترف والإخلاق إلى الأرض ،
والرضا بمباهجها ، والتوسع في ذلك توسعاً عظيماً ، إذ بنوا بغداد
على هيئة عظيمة ، وتوسّعوا في بناء القصور ذات الأواوين الضخمة ،
وتفننوا في البناء والزينة ، والزخارف والنقوش ، والستائر والبسط
والأثاث ، والتماثيل والتحف والأواني ، وفي الطعام والشراب ، كما
تأنقوا في الجواهر والزينة والطيب والملبس والثياب ، متأثرين بالأزياء
الفارسية ، واهتموا بأدوات الترويح واللعب : كسباق الخيل ، وسباق
الحمام الزاجل ، ولعبة الصولجان ، والشطرنج ، والنرد ، والصيد
بالبزة والصقور والشواهين ، والكلاب والفهود ، وهذا يدل على
الترف والبذخ الذي كان يتمتع به الخلفاء وأبناء البيت العباسي ،
والوزراء والقواد وكبار رجال الدولة ، والتجار ، وبعض الشعراء ،
والكتاب والمغنين ، والعلماء . . . !

خامساً: عهود الترف في العالم العربي:

أجل ! لقد أتى على العالم العربي عهدٌ في التاريخ كانت الحياة فيه
تدور حول فردٍ واحد ، وهو شخص الخليفة أو الملك ، وحوله حفنة
من الرجال هم الوزراء وأبناء الملك ، وكانت البلاد تعتبر ملكاً
شخصياً لذلك الفرد السعيد ، والأمة كلها فوجاً من المماليك والعبيد ،
ويستحكم في أموالهم وأملاكهم ونفوسهم وأعراضهم ، ولم تكن
الأمة التي كان يحكم عليها إلا ظلاً لشخصه ، ولم تكن حياتها إلا
امتداداً لحياته .

لقد كانت الحياة تدور حول هذا الفرد بتاريخها وعلومها وآدابها
وشعرها وإنتاجها ، كذلك تضمحلّ هذه الأمة في شخص هذا
الفرد ، تذوب فيه ، وتصبح أمة هزيلة لا شخصية لها ولا إرادة ،
ولا حرية لها ولا كرامة .

وكان هذا الفرد هو الذي تدور لأجله عجلة الحياة ، فلأجله يتعب الفلاح ، ويشغل التاجر ، ويجتهد الصانع ، ويؤلف المؤلف ، وينظم الشاعر ، ولأجله تلد الأمهات ، وفي سبيله يموت الرجال ، وتقاتل الجيوش ، بل ولأجله تلفظ الأرض خزائنها ، ويقذف البحر نفائسه ، وتستخرج كنوز الأرض خيراتها!!^(١).

سادساً: الترف في الدول الغربية:

هكذا فعل الترف في الشعوب والأمم السابقة ، فماذا يفعل بها اليوم؟ لقد وصلت بعض الدول الغربية كفرنسا في الترف إلى حدّ عجيب ، مما جعل كبار المصلحين عندهم ينادون ويحذرون من الخطر القادم جرّاء شبح الترف ، مثال ذلك كتاب (مغرب الغرب) للعالم الألماني (شبلنجر) ، والذي قال فيه : «إن الحضارة المادية التي أترف فيها الناس ، والتي كانت سبباً في تقدم أوروبا وأمريكا على غيرهما من الشعوب هي سبب أفول نجم هذه الشعوب».

ويؤكد على فكرة مهمة ملخصها : «لا علم بغير دين ، ولا فضيلة بغير دين ، ولا بقاء للسلطة بغير دين ، والدين لا يجيز هذا الترف والفساد الذي نعيش فيه».

ولعمري ، لكان هذا الفيلسوف الألماني يشرح قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهِآ أَنتَهَىٰ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس : ٢٤].

أو لكانه يرتل قول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ

(١) للتوسع يراجع : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ ص ٢٨٨ - ٢٩٥ .

مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾
[الأنعام: ٤٤ - ٤٥].

سابعاً: نموذج من الترف الحديث:

حتى العالم العربي والإسلامي فقد سقط قسم كبير من الأفراد في مستنقعات البذخ والترف! .. وأخلدوا إلى الأرض ، وساروا وراء النمط الاستهلاكي ، وتباهوا بالأعراس والأتراح ، وفي ذلك يقول الإمام محمد أبو زهرة رحمه الله :

«ولننظر في حالنا نجد أن البلاد الإسلامية أو العربية أو البلاد المصرية على وجه الخصوص تنقسم إلى قسمين :

١ - قسم يعيش على ملء بطنه إن وجد ما يملؤها ، وعلى ستر عورته إن وجد ما يسترها ، وهذا هو الكثرة الكاثرة .

٢ - وقسم يعيش في ترفٍ يُذهب كل معنى من معاني الرجولة ، وهؤلاء إذا استمرّوا مسيطرين على الرأي العام الفكري فبشر مصر والعرب بالخراب المستعجل! ونرجو ألا يكون .

إننا نجد الآن دور الملهي والصحف والمجلات - إذا استثنينا المجلات الإسلامية المحدودة النشر ، والتي لا يقرؤها إلا من يتمسك بدينه ، ولا ينتفع بها غيره - نجد تلك الدور كلها تصوّر حياة المترفين ، وكذلك الروايات السينمائية نجدها تمثل قصوراً لقوم يتنعمون بأبلغ أنواع التنعم ، ثم نجد معانيها كلها تتجه إلى اللذات وإلى الشهوات وإلى الإسراف فيها ، ولا تجد فيها إلا مناظر السكاري والراقصين والراقصات ، فإذا أردنا أن نعرف مجتمعنا من دور السينما ومن الأفلام نرى أنه لاهٍ لاعب عابث ، ثم إن تلك المناظر تقتل النخوة وتثير في الشباب الرغبة الملحة في أن يكونوا كأبطال السينما يطلبون الهوى والترف واللذة .

ولنتقل إلى الصحف فنرى كل صحيفة تنقل أخبار المترفين وأوصاف الملاذ والشهوات عن أمريكا وعن فرنسا وعن إنجلترا ، وكذلك أبناء المطربين والمطربات وما هم عليه من ترف ، فكأننا في جو يدعو إلى الترف ، مع وجود الحرمان المطلق!! .

لذلك نخشى على أنفسنا ، ونخشى على مصر والعرب أنه إذا استمرت تلك الدور تؤدي دورها ، فالويل ثم الثبور والهلاك للأمة العربية ، وهو هلاك لا قتل لها باحتماله ، لأن الترف كان فيما مضى محصوراً في طبقات معينة ، ولم يكن معلناً في كل مكان ، وكان يستتر استتاراً ، لأن الأمة العربية كانت في شكيمتها وفي عزها وفي قوتها لا تخنع ولا تذلل ، إذا اختبرت أبلت بلاءً حسناً في اختبارها ، أما إذا ساد الأمر الآن فإننا نخشى على الأمة كل الخشية ، وخصوصاً إن علمنا أن التلفزيون سيرسل إلى بلاد الفلاحين ، وأنه يراد أن يكون في كل جمعية تعاونية تلفزيون ، ليرقه عن الأهلين ، وليروا فيه ترف المفسدين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله»^(١) .

ولعل في كلام الإمام تفسيراً لقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ [٢٢] وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴾ [٢٤] أَعِدُّوا أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ ﴾ [٢٥] هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ [٢٦] إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [٢٧] إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [٢٨] قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ [٢٩] قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴾ [٣٠] فَلَاخَذَهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [المؤمنون: ٣٣-٤١] .

(١) مجلة لواء الإسلام ، عدد (٦) ، ص ٣٨٨ .

ثامناً: حديث ابن خلدون عن الترف:

وأما العلامة ابن خلدون (ت: ٨٠٨ هـ) فقد تحدث عن الترف وآثاره بشكل تفصيلي تحليلي ، مثال ذلك قوله: «الترف والنعمة إذا حصلا لأهل العمران دعاهم بطبعه إلى مذاهب الحضارة والتخلق بعوائدها ، والحضارة كما علمت هي التفنن في الترف ، واستجادة أحواله ، والكلف - أي التعلق - بالصنائع التي تؤتق من أصنافه وسائر فنونه ، من الصنائع المهيئة للمطابخ أو الملابس أو المباني أو الفرش أو الآنية ، ولسائر أحوال المنزل ، وللتأنيق في كل واحد من هذه صنائع كثيرة لا يحتاج إليها عند البداوة وعدم التأنيق فيها .

وإذا بلغ التأنيق في هذه الأحوال المنزلية الغاية تبعه طاعة الشهوات ، فتتلون النفس من تلك العوائد - أي: العادات - بألوان كثيرة ، لا يستقيم حالها معها في دينها ولا دنياها ، أما دينها فلاستحكام صبغة العوائد التي يعسر نزعها ، وأما دنياها فلكثرة الحاجات والمؤونات التي تطالب بها العوائد ويُعجز ويُكَب - أي: ويُصرف - عن الوفاء بها» .

ثم يقول: «إن الأخلاق الحاصلة من الحضارة والترف هي عين الفساد ، لأن الإنسان إنما هو إنسان باقتداره على جلب منفعه ، ودفع مضاره ، واستقامة خلقه للسعي في ذلك ، والحضري لا يقدر على مباشرة حاجاته ، إما عجزاً لما حصل له من الدعة ، أو ترفعاً لما حصل له من المربى في النعيم والترف ، وكلا الأمرين ذميم . ثم هو فاسد أيضاً - غالباً - بما فسدت منه العوائد وطاعتها ، وما تلونت به النفوس من مكائنها كما قررناه ، إلا في الأقلّ النادر ، وإذا فسد

الإنسان في قدرته على أخلاقه ودينه فقد فسدت إنسانيته ، وصار مسخاً على الحقيقة»^(١).

تاسعاً: آثار الترف وصوره:

إذن: للترف آثار كثيرة ومتنوعة ، أهمها: الغفلة عن الآخرة والانغماس في أمور الدنيا ، والتعلق بملذات الدنيا ونسيان الهدف ، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرَاهُ مُمْصِفًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتَعُ الْعُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

وكثيرة هي صور تعلق الإنسان بملذات الدنيا ، أهمها:

١ - التوسع في المآكل والمشارب: علماً أن النبي ﷺ قال محذراً من شبع المترفين: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه ، بحسب ابن آدم أكالات يُقمن صلبه ، فإن كان لا محالة ، فثلث لطعامه ، وثلث لشربه ، وثلث لنفسه» [سنن الترمذي: (٢٣٨١)].

ورضي الله عن عمر عندما حذر من ذلك ، فقال: إياكم والبطنة في الطعام والشراب ، فإنها مفسدة للجسد ، مورثة للسقم ، مكسلة عن الصلاة ، وعليكم بالقصد فيهما ؛ فإنه أصلح للجسد ، وأبعد من السرف ، وإن الله تعالى ليُبغض الحبر السمين ، وإن الرجل لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه^(٢).

٢ - التوسع في النوم: لأن ذلك يؤدي إلى مضیعة الوقت ، بينما رأس مال الإنسان الحقيقي هو الوقت ، ورحم الله العلماء عندما كانوا

(١) مقدمة ابن خلدون ، ص ٣٧٢ - ٣٧٤.

(٢) كنز العمال ، للمتقي الهندي: ٤٣٣/١٥.

يتعبون ويسهرون ويغالبون النوم في سبيل العلم^(١).

مثال ذلك: ما ورد في ترجمة الإمام مالك رحمه الله: كان يصلي الفجر بوضوء العشاء نصف قرن - خمسين سنة -!.. وهو أمر عجيب غريب ، لا يقدر عليه إلا آحاد من الناس على مرّ القرون!!^(٢).

وأما الإمام محمد بن الحسن الشيباني رحمه الله ، فقد كان يجزئ الليل ثلاثة أجزاء: جزء للنوم ، وجزء للصلاة ، وجزء للدرس ، وكان كثير السهر ، فقيل له: لم لا تنام؟ قال: كيف أنام وقد نامت عيون المسلمين تعويلاً علينا ، وهم يقولون: إذا وقع لنا أمر رفعناه إليه ، فيكشفه لنا ، فإذا نمنا ففيه تضييع للدين!^(٣).

٣ - حبّ التكثر من المال: بحيث يجزّه المال إلى ما لا تُحمد عقباة، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾ ﴿١﴾ ﴿أَن رَّاهُ أَسْتَفْتَى﴾ [العلق: ٦-٧].

وقوله سبحانه: ﴿وَبَلِّغْ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ ﴿١﴾ ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ ﴿٢﴾ ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ [الهمزة: ١-٣].

وقد ورد في «صحيح مسلم»: قوله ﷺ: «إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة ؛ إلا من أعطاه الله خيراً فنفع فيه يمينه وشماله ، وبين يديه ووراءه ، وعمل فيه خيراً».

وهذا عينه الذي ساق الكافرين المترفين إلى الكفر بالدعوة الإسلامية ، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿قُلْ أُولَٰئِكَ

(١) للتوسع يراجع: توضيحات في سبيل العلم ، للمؤلف ، ص ١٥٧ - ١٦٩ .

(٢) ترتيب المدارك ، للقاضي عياض: ٣/ ٢٥٠ .

(٣) صلاح الأمة في علو الهمة ، الدكتور سيد العفاني: ١/ ٢١٨ .

حَتَّىٰ تَكُونُوا بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءُكُمْ قَالُوا إِنَّا يَمَّا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٣﴾
[الزخرف: ٢٣ - ٢٤].

٤ - التوسع في المركوب والمسكن والملبس: وهي في الأصل من المباحة ، دليل ذلك قول المصطفى ﷺ: «من سعادة ابن آدم ثلاثة ، ومن شقاوة ابن آدم ثلاثة ، من سعادة ابن آدم: المرأة الصالحة ، والمسكن الصالح ، والمركب الصالح ، ومن شقاوة ابن آدم: المرأة السوء ، والمسكن السوء ، والمركب السوء»^(١).

لكن المشكلة أن يتحوّل المباح إلى التفاخر والتعالي على الناس من خلاله ، وإلى أن يأخذ قسطاً من الوقت للحديث عن ميزاته ، بل وقد يصل الإنسان إلى عبادته من دون الله ، مصداق ذلك قوله ﷺ: «تعس عبد الدينار ، وعبد الدرهم ، والقטיפه ، والخميصة ، إن أعطي رضي ، وإن لم يُعط لم يرض» [صحيح البخاري: (٦٠)].

٥ - التوسع في النكاح: حيث البذخ والتبذير في حفلة العرس ، وفي المهر ، وفي الموائد ونحو ذلك!.

٦ - يضاف إلى آثار الترف أيضاً: التباطؤ في قضاء الأمور ، والدعة والكسل ، وضعف الجسد وخور العزيمة ، وتعاطي بعض المعاصي والإصرار عليها ، وحبّ الحياة وكراهية الموت ، وضعف الجانب التربوي ، وضعف الجانب الإيماني... إلخ.

وقد حذرنا المصطفى ﷺ من ذلك كله ، مثال ذلك ما أخرجه البخاري: عن أنس رضي الله عنه ، قال: كان النبي صلوات الله عليه يقول: «اللهم ، إني أعوذ بك من الهمّ والحزن ، والعجز والكسل ، والجبن والبخل».

(١) مجمع الزوائد ، للهيتمي: ٢٧٥/٤.

مثال آخر أخرجه أبو داود وأحمد: أن النبي ﷺ ، قال: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة إلى قصعتها» .

قلنا: يا رسول الله ، أمن قلة بنا يومئذ؟ .

قال: «أنتم يومئذ كثير ، ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل ، ينتزع المهابة من قلوب عدوكم ، ويجعل في قلوبكم الوهن» .

قلنا: وما الوهن؟ .

قال: «حب الدنيا ، وكراهية الموت»^(١) .

ورحم الله الإمام محمد أبو زهرة عندما قال: «الترف يُذهب النخوة ، ويضعف قوة النفس ، ويجعل الإنسان ضعيفاً مستكيناً عبداً لشهوته ، وما أذل الأمم شيء كالترف ، وما ذهب بقوة الأمم شيء كالترف» .

وقال: «والتتار عندما جاؤوا منحدرين من أعلى الصين كالصخرة ، لا تلوي على شيء إلا أخذته ، كانوا خشنين ، حفاةً غلاظاً ، والمسلمون في ذلك الوقت كانوا يعيشون بين الجواري ، بل كانوا قد تناولوا المحرمات واستباحوا الخمر - طبعاً ليس كل المسلمين ، بل غالبيتهم وللأسف - فانساب التتار في أرض المسلمين .

حتى إن الحافظ ابن كثير يقول: إنهم ما كانوا في فتحهم إلا على مقدار سيرهم ، فبمقدار سرعة السير كانت سرعة الفتح ، إذ لم يعوقوا ، لأن المسلمين كانوا قد أصابهم الترف ، حتى إذا أحس المسلمون بالويلات واخششوا ، وباعدوا الترف ، وكان التتار قد

(١) صحيح سنن أبي داود: ٣/ ٨١٠ .

ذاقوا الترف ، عندئذٍ التقت بهم جيوش الشام ومصر فأعملت السيوف في أقفيتهم! ^(١).

كل هذه القصص والحكايات تفسر قوله تعالى وهو يتحدث عن آثار الترف في الأفراد والأمم والجماعات: ﴿حَقَّ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ﴾ ^(١١) لَا يَجْتَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصِرُونَ ^(١٢) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ نَنكَبُونَ ^(١٣) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمِرًا تَهْتَجِرُونَ ﴿[المؤمنون: ٦٤ - ٦٧].

﴿أَخَذْنَا﴾: الأخذ هو الاستيلاء بعنف على شيء هو لا يحب أن تستولي عليه ، والأخذ يُوحى بالعنف والشدة ، بحيث لا يستطيع المأخوذ الإفلات مهما حاول .

والكلام هنا عن كفار قريش ، حيث لما رآهم النبي ﷺ أترفوا بالنعمة وطغوا بها قال : «اللهم ، اشدّد وطأتك على مُضر ، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف» [صحيح البخاري: (١٠٠٦)].

فأخذهم الله حال ترفهم بالقحط والسنين ، فراحوا يصرخون ويضجون ، ويأتيهم الجواب من رب الأرباب: ﴿لَا يَجْتَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصِرُونَ﴾ لأن من يجار ينادي من ينصره وأنتم لن تُنصروا ، وذلك لأنني أنصر أوليائي ، وأنصر رسلي ، وأنصر من ينصرني .

* * *

(١) مجلة لواء الإسلام ، عدد (٦) ، ص ٣٨٨ .

obeikandi.com

الفصل الرابع

انتشار الفساد ، وكثرة المفسدين !!

أولاً: معنى الفساد:

في اللغة: فسد، كنصر وعقد وكرم، فساداً وفسوداً، ضد صَلَحَ ، فهو فاسد وفسيد ، والفساد: أخذ المال ظلماً ، والمفسدة: ضد المصلحة.. (١).

وفي الاصطلاح: هو خروج الشيء عن الاعتدال ، قليلاً كان الخروج عنه أو كثيراً ، ويضاده الصلاح ، ويستعمل ذلك في النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة (٢) ، وفي القرآن الكريم ذكر لمسألة الفساد ، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

وقوله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

ويضرب القرآن نماذج للمفسدين ، فهناك من أفسدهم المال ، وهناك من أطغاهم المنصب... وهكذا ، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَتَّبِعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

(١) القاموس المحيط ، الفيروز آبادي ، ص ٣٠٦.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن ، الراغب الأصفهاني ، ص ٦٣٦.

ثانياً: أهم أشكال الفساد في العالم الإسلامي:

ومن أهم أشكال الفساد في العالم - نماذج من الدول الإسلامية - ما يلي:

١ - التبعية والتقليد:

وصف ابن خلدون ذلك بقوله: «إن المغلوب مولع أبداً بالافتداء بالغالب ، في شعاره وزيه ونحلته ، وسائر أحواله وعوائله» .

وبالتالي وصلنا إلى مرحلة التغريب وقابليتنا للتغريب ، بحيث اتسعت الفجوة بين الفكر والتطبيق ، وهذا لا يسود إلا أثناء فترات الانحطاط الحضاري ، ولذلك سُحقت شخصيتنا الإسلامية ، واتجهنا نحو محاكاة نمط الغرب أو الشرق! والمؤسف أن ذلك كان واضحاً في ظواهر طرد الثقافة الإسلامية التي تناسب أوضاعنا ، وإحلال الثقافة الغربية محلها ، حتى لو كانت تخالف معتقداتنا وسلوكنا وعاداتنا وأخلاقياتنا .

٢ - العدوى في الفساد:

بحيث بدأت نتائج العولمة تظهر للعيان ، ومنها: فقدان السلع المادية هويتها الوطنية ، لكن الأمر المخيف حقاً هو انتقال الفساد من بلاد الغرب عن طريق العدوى إلى بلاد المسلمين! .

وهكذا ، فالفساد العالمي الذي أحدثته الأوضاع والمخططات انعكس على واقع العالم الإسلامي ، وأثر فيه تأثيراً كبيراً.

٣ - الأثرة الفاحشة:

وهي تؤدي إلى فتح كل أبواب الفساد ، وأبرز مظاهره الواضحة فساد الأخلاق ، بحيث يستهلك الأغنياء الفوائد المالية في الملاهي وعلى الملذات ، بينما يعيش الفقراء تحت وطأة الموت أو ما يقرب منه! .

وهكذا تزداد الفجوة بين الفقراء والأغنياء ، فيزداد الفقراء فقراً وديوناً ، وتنمو المشاكل - وخاصة الاقتصادية منها - نمواً سرطانياً ، ويلعب الأغنياء - عن طريق التلاعب بالأسعار والاحتكار - لعبة المصيدة الجهنمية ، والتي لا يستطيع الخروج من أتونها إلا من رحم ربك ! .

مثال ذلك : أن الكلاب المدلّلة في البلاد الغنية تستهلك ربع الإنتاج العالمي من الحبوب ، أي : ما يقارب استهلاك جميع سكان الهند والصين !! .

وكما قال (رجاء جارودي) : «إن من العار أن تسمع المؤتمر السكاني - الديموغرافي - في (بوخارست) يقول : إن إنجاب أقل عدد ممكن من الأطفال يجنبّ العالم مشاكل الجوع ، في الوقت الذي نعرف جيداً أن فلاحاً باكستانياً أو هندياً يستهلك أقل مما يستهلكه زميله الأمريكي في كاليفورنيا بأربعمئة مرة !!» .

٤ - التخلف العلمي :

ففي بلاد المسلمين تزداد الأمية انتشاراً ، بحيث تقارب النسبة (٦٢٪) إضافة إلى التخلف في التصنيع والتقنيات والاختراعات ، وما إلى هنالك^(١) .

ثالثاً: الفساد أحد أسباب هلاك الأمم:

أجل ! وردت في القرآن الكريم بعض الآيات التي تدلّ على أن أحد أسباب هلاك الأمم إنما هو انتشار الفساد والمفسدين ، وعدم وجود من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، مصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ فَلََوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ

(١) للتوسع يراجع : ظاهرة العولمة الاقتصادية ، للمؤلف ، ص ٦٨ - ٧٩ .

رَبِّكَ لِيُهْلِكَ الْفَرَى يَظْلِمَ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ [هود: ١١٦-١١٧].

والحق سبحانه يرشدنا إلى أن بقية الأشياء هي التي ثبتت أمام أحداث الزمن ، فأحداث الزمن تأتي لتطوح بالشيء التافه أولاً ، ثم بما دونه ، ثم بما دونه ، ويبقى الشيء القوي ؛ لأنه ثابت على أحداث الزمن . . . وبقية الأشياء دائماً خيرها .

والحق سبحانه قد بين لنا أنه قد أهلك الأمم التي سبقت ، لأنه لم توجد فئة منهم تنهى عن الفساد في الأرض ، وجاء الإهلاك لامتناع من يقاوم الفساد بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

وضرب الحق سبحانه لنا المثل بالبقية في كل شيء ، وأنها هي التي تبقى أمام الأحداث ، ففي قصة شعيب عليه السلام يقول الحق سبحانه : ﴿ يَنْقُورُ عِبْدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُ ﴿٨٤﴾ وَيَنْقُورُ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ٨٤-٨٦] .
ومعنى ذلك أن نقص المكيال أو الميزان قد يزيد التاجر ما عنده ، ولكنه لا يلتفت إلى ما هو مدخور .

ويلفتنا القرآن الكريم إلى المنظور ، وإلى المدخور ، فيقول الحق سبحانه : ﴿ أَلَمْ آتِ الْبَنُونَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّلَاحُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا . . . ﴾ [الكهف: ٤٦] .

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ . . . ﴾ أي : لولا أن كان في الناس بقية من الخير ، وبقية من الإيمان ، وبقية من اليقين ، وكانوا ينهون عن الفساد في الأرض ، لولا هم لخسف الله الأرض بمن عليها .

﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَجَجْنَا مِنْهُمْ ﴾ وقد أنجى الحق سبحانه بعضاً ممن نهوا عن الفساد في الأرض ، ونرى أمثلة على ذلك في القرية التي كانت

حاضرة البحر ، وكانت تأتيهم حيتانهم بارزة واضحة في الماء ، وذلك في يوم السبت الذي حرموا فيه الصيد على أنفسهم ، ويوم لا يستون لا تأتيهم ، آيتا سورة الأعراف: ١٦٤ - ١٦٥ .

وهكذا أنجى الله سبحانه الذين نهوا عن سوء في تلك القرية .

وقد نرى في بعض المجتمعات عنصريين :

الأول : أنه لا توجد طائفة تنهى عن الفساد .

الثاني : أن يفتح على المجتمع باب الترف على مصراعيه ، وفي انفتاحه مذلة للبشر ، لأنك قد تجد إنساناً لا تترفه إمكاناته ، فيزيد هذه الإمكانيات بالرشوة والسرقة والغصب ، وكل ذلك إنما ينشأ ؛ لأن الإنسان يرى مترفين يتنعمون بنعيم لا تؤهله إمكاناته أن يتنعم به ^(١) .

وفي آية ثانية يبين الحق سبحانه أن أحد أهم أسباب إهلاك الأمم هو الفساد والظلم ، قال تعالى : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ ^(١١) فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَاءِ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَبُولْنَا إِنْ أُنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خِلْمِينَ ﴿١٥﴾ [الأنبياء: ١١ - ١٥] .

وفي آية ثالثة يؤكد الحق سبحانه على أن كثيراً من بني إسرائيل لعنهم الله بسبب تركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والانغماس في الفساد ، قال تعالى : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ ^(٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ [المائدة: ٧٨ - ٧٩] .

(١) باختصار من : تفسير الشعراوي : ١١ / ٦٧٣٥ - ٦٧٣٦ .

رابعاً: أدوات الفساد:

أما أدوات الفساد فهي كثيرة ، مثل: اللعب بالموازنين ، والظلم ، والمغالاة ، والتعدي ، والغش ، والتدليس ، والخيانة ، والميسر ، والقمار ، والكذب . . . وما إلى هنالك .

خامساً: الآثار الوخيمة للفساد:

وأما الآثار الوخيمة للفساد، فأيضاً كثيرة ، منها ما يؤثر على الأفراد؛ كالبطالة والجريمة والتكاسل ، ومنها ما يؤثر على المجتمعات ؛ كفساد الأسواق ، وتخطب الأسعار ، والكسب الحرام ، والاحتكار ، وغسيل الأموال . . . وما إلى هنالك^(١) .

سادساً: الحلول المقترحة لمحاربة الفساد:

وأما الحلول المقترحة لمحاربة الفساد ، فكثيرة ، منها: الرقابة الصارمة، والقضاء النزيه، والإعلام الحرّ، وانتشار الفضائل، والأخلاق الحميدة، ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب، وتأمين الضرورات والحاجيات للفرد . . . والأهم من ذلك أن نتبنى الإسلام كله . . . أما الحلول الجزئية والترقيع فذاك يزيد الطين بلة ، وإلا كيف ينجح خطباء المساجد مثلاً في القضاء على الفساد، بينما تبث وسائل الإعلام مسلسلات تصوّر المرتشي وغيره من الفاسدين بطلاً أسطورياً؟! .

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٦] .

* * *

(١) للتوسع يراجع: غسيل الأموال جريمة بيضاء لكنها خطيرة جداً ، للمؤلف ، ص ١٨٨ - ٢٠٠ .

الباب الثالث

مَا أَكْثَرَ الْعِبَرَ.. وَمَا أَقَلَّ الْمُعْتَبِرِينَ!

الفصل الأول: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾.

الفصل الثاني: ﴿ثُمَّ نُنْعِمُهُمُ الْآخِرِينَ﴾.

الفصل الثالث: ﴿كَذَلِكَ نَفْعِلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾.

* * *

الفصل الأول

﴿الْمُتَهَلِّكِ الْأَوَّلِينَ﴾

يرسم البيان الإلهي خطوطاً عريضة ، فيها من العبر والعظات الشيء الكثير ، من ذلك قوله تعالى وهو يتحدث عن مصارع الأمم :
﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ الَّتِي هُتِلَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُنْعِمُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [المرسلات : ١٥ - ١٨].

إضافة إلى ذلك ، فقد حضّ القرآن الناس على السير في الأرض من أجل أن يشاهدوا بقايا الأمم التي أهلكها الله سبحانه ، ولينظروا إلى آثارهم ، وليعتبروا مما حدث ، ففي ذلك قضايا تنطق بأفصح لسان على أن القوة التي دمرت أولئك الناس قادرة على تدمير وإهلاك كل من طغى وبغى وتجبّر ، وفي كل زمان وأي مكان ! . ونضرب أمثلة لذلك :

أولاً: قصة الطاغية فرعون:

في قصة الطاغية فرعون ، وكيف أنه ادّعى الربوبية وما جرى بينه وبين كريم الله موسى عليه السلام ، وكيف قاده جنونه وكبرياؤه إلى عدم استخدام العقل لمحاولة حل المشكلة ، وكيف وصل الحال به إلى أن قاد جيشاً جرّاراً للقضاء على موسى عليه السلام ومن معه ، حتى حين أمر موسى البحر فانشق بإذن الله دجّل فرعون على الناس وادّعى أنه هو الذي فعل ذلك ! . . وكيف تبع فرعون موسى عليه السلام في البحر وكيف تمّ إغراقه ، ثم كيف نجّى الله جسده ليكون فيه العبر والعظات لمن سيأتي من بعده ، وجسده حتى الآن موجود في أحد متاحف مصر ! مصداق ذلك قوله تعالى : ﴿وَجَنُوزْنَا بِجَنَى إِسْرَءِيلَ

الْبَحْرَ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنْتُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَلَكُنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدْنِكَ لَنُكَوِّنَ لِمَنْ خَلَفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾ [يونس : ٩٠ - ٩٢].

ثانياً: قارون طاغية المال:

وفي سورة أخرى يأتي الحديث عن طاغية المال قارون ، وكيف كان ماضيه مع نبي الله موسى عليه السلام ، ثم كيف أطغاه المال وجعله متكبراً متجبراً ، وأصبح يستعلي على الناس بما وهبه الله من مال وفير ، وادّعى أن ذلك لم يكن ليصير لولا شطارته وذكائه وعبقريته! وكيف جاء إليه الناس يطلبون منه المساعدة ، فرفض وحمد المنعم سبحانه ، وكيف آلت إليه العاقبة الوخيمة؛ قال الله تعالى في سياق القصة: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكُنَّ اللَّهُ يَحْكُمُ الرَّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكُنَّا مِنَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ تِلْكَ الذَّارُ الْآخِرَةُ يَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٨﴾ [القصص : ٨١ - ٨٣].

وفي سورة أخرى يأتي التوجيه إلى خاتم الأنبياء محمد ﷺ ليقول له: لئن كذبتك قومك فالأنبياء من قبلك كذبوا ، فأنت لست وحدك في هذا الطريق، وكما أهلك الله أولئك الأقوام، كذلك فإنه سبحانه سيهلك كل من يقف في وجه الدعوة ، مصداق ذلك قوله سبحانه: ﴿ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴾ ﴿١٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٤﴾ فَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِىٰ مُعْتَلَةٌ وَقَصْرِ مَشِيدٍ ﴿١٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ

قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ
الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿الحج: ٤٢-٤٦﴾.

ثالثاً: أصحاب القرية:

وفي سورة يسّ حديث عن الشاب الذي أسلم وأخفى إسلامه خوفاً من المحيطين به ، ولما أرسل الله بعض المرسلين إلى أصحاب القرية ، فدعوهم إلى التوحيد ، فقابلوا ذلك بالتكذيب ، عندئذ تدخل الشاب المؤمن وراح ينصّحهم ، لكن دون أدنى فائدة ، فما كان منهم إلا قتله فأدخله الله جنته ، ولما رأى ما فيها تمنى لو أن كل فرد من قومه علم ذلك لسجد بين يدي الله سبحانه ، ثم تساءل الشاب متحسراً على المعاندين والمتكبرين ؛ قال الله تعالى في سياق القصة : ﴿يَحْزَنُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمَعَ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿يس: ٣٠-٣٢﴾.

رابعاً: ترك بقايا وأثار المهلكين للعبرة:

وهكذا ، يُعيد القرآن ويؤكد مرة تلو مرة على وجوب السير في الأرض ، والنظر إلى بقايا المهلكين ، وذلك من باب العبر والمواعظ ، مثال ذلك قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿يونس: ١٣-١٤﴾.

وفي سورة أخرى يقول الله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿١١١﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٢﴾ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿يوسف: ١٠٩-١١١﴾.

ويؤكد البيان الإلهي هذا المعنى مرة أخرى ، فيقول الله تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا اللَّهُ لِيُظِلَّهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا السَّوْءَ إِنَّ كَذِبُوا يَأْتِيَنَّ اللَّهُ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الروم: ٩ - ١٠].

ومثلها قول الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانُوا لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَنْبَةٍ وَلَا كُنَ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَكُنُ اللَّهُ لَكُمْ رَءِيفًا ﴾ [فاطر: ٤٤ - ٤٥].

ومثلها الكثير من الآيات التي يوضح الله تعالى فيها الخط العريض في إهلاك الأمم، وأنه لحكمة إلهية معينة يترك الله بعض آثارهم، وذلك كي يتعظ الناس ويعتبروا بمن سبقهم، وهذه حقيقة يلمسها الإنسان عندما يقف على آثار مدينة تدمر... ومدينة بصرى في سورية، إضافة إلى الحصون والقلاع، ومثلها مدينة بعلبك في لبنان، ومدينة البتراء في الأردن، والآثار العظيمة في مصر كالأهرامات ونحوها.

كل تلك الآثار يقف الإنسان مندهشاً من عظمتها، ويتساءل: وأين الذين أشادوا وعمروا، وزيتوا وزركشوا، وتفتنوا و...؟! لقد طواهم عالم النسيان ليصبحوا في متاهات الماضي السحيق، والبقاء لله وحده: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُمْ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٨﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَلَّ اللَّهُ الْتَقَى قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادَةٍ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر: ٨٢ - ٨٥].

* * *

الفصل الثاني

﴿ ثُمَّ نَبِّئُهُمُ الْآخِرِينَ ﴾

ودار الزمن دورته ، وتعاقبت على الكرة الأرضية أقوام وشعوب ، وشاء الله تعالى الهداية للبشر ، فأرسل فيهم ومنهم خاتم الأنبياء محمداً ﷺ ، فأسس للدعوة الإسلامية في مكة ، ثم انتقل إلى المدينة المنورة لتصبح دولة إسلامية هي مركز الإشعاع والهداية إلى كل الشعوب وكل العالم .

وبعد انتقاله صلوات الله عليه إلى الرفيق الأعلى ، كانت فترة الخلافة الراشدة ؛ حيث تثبتت أركان الدولة الإسلامية ، خاصة الأمور المالية والاقتصادية ، ثم كانت فترة العهد الأموي ، حيث ازدادت الفتوحات الإسلامية وأصبحت دولة قوية ومتطورة . . . وبعدها كانت دولة بني العباس ، وكان الدور الأول فيها هو دور الفتوة والقوة ، لكنها بعدئذ امتدت إليها أيادي العابثين والمنشقين والمخربين . . . والطامة الكبرى الحملات الصليبية على بلادنا ، وكذلك الحملات الرهيبة التي قادها التتار على البلاد الإسلامية ، حيث أعادت بلادنا إلى الوراء عدة سنوات .

أولاً: أسباب النكبات:

ولعل تلك النكبات المتتالية كان من أهم أسبابها ما يلي :

١ - ضعف الوازع الديني .

٢ - التفسخ الأخلاقي: حيث تفشت المنكرات التي لم يعرفها السابقون في بيوتاتهم وقصورهم ونحو ذلك ، ونتيجة ذلك حتماً هي التدمير والإهلاك ، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ [الأنعام: ٦].

٣ - الانحلال الاجتماعي .

إذن: كان العالم الإسلامي قبيل الحروب الصليبية تعمه الفوضى والانقسامات، وتهزه الاضطرابات ، مما أغرى الصليبيين باحتلاله ! .
وبالفعل قامت الحملات الصليبية العسكرية ما بين عامي (٤٩٠ - ٦٩٠ هـ) ، وذلك تحت حجة استخلاص بيت المقدس من أيدي المسلمين .

ولكن الظلم الذي قام به الصليبيون تجاه العرب والمسلمين لن يمر هكذا ، إنما لا بدّ للقانون الإلهي أن يطبق عليهم ، ولا بدّ لسنة التغيير أن تدور عليهم .

ثانياً: دور صلاح الدين في الأمة:

هياً الله للأمة صلاح الدين الأيوبي ، حيث اعتمد بعد الله على الإعداد الروحي ، ثم الإعداد العسكري ، وقام بالتوحيد قبل المعركة ، وأرسى العدالة الاجتماعية قبل إرساء الحجر ، وأوعز إلى العلماء أن يركزوا على إشاعة مفهوم الجهاد في سبيل الله وحب الشهادة ، مصداق ذلك ما أخرجه الطبراني: أن النبي ﷺ قال: «طوبى لمن أكثر في الجهاد في سبيل الله من ذكر الله ، فإن له بكل كلمة سبعين

ألف حسنة ، كل حسنة منها عشرة أضعاف مع الذي له عند الله من المزيد».

وحمل صلاح الدين لواء الإصلاح ولواء الجهاد ، وكان شجاعاً ومتواضعاً ، وكان يركب جواده وهو مريض ، ويقود جنده ويندفع أمامهم ، فإذا ما طلبوا منه أن يريح نفسه ، قال : إني إنما أشعر بالمرض حين أترك ظهر جوادي ! .

وفي حطين تقابل المسلمون والصليبيون ، وأبلى المسلمون بلاءً حسناً ، حتى بلغ عدد القتلى من الصليبيين عشرة آلاف ، ووقع كبار قادتهم أسرى في يد المسلمين ! .

إذن : دارت الدائرة على الظالمين ، من التتار والصليبيين ، وطبق عليهم قانون الهلاك ، فكانوا عبرة لمن يعتبر ، قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [غافر : ٢١ - ٢٢] .

* * *

الفصل الثالث

﴿كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾

أولاً: عاقبة المجرمين (انهيار الاتحاد السوفياتي):

وهكذا بادت أمم وصعدت أمم أخرى ، وكل ذلك من أجل أن يعتبر المعتبرون ، ويتعظوا ويوقنوا بأن الله سبحانه سنناً في الكون لا يُحابي بها أحداً ، حتى إذا وصلنا إلى القرون المتأخرة ، وإذا بدول عظمى تبرز على الساحة كبريطانيا ، وفرنسا ، وإيطاليا وغيرها .

وبدل أن تقوم تلك الدول بمساعدة الفقراء والمساكين ، وتساهم في رفع نسب النمو والتنمية في البلاد النامية ، إذا بها تحتل تلك البلاد ، فتسرق الخيرات ، وتسخر أهلها وتعتبرهم كالعبيد! .

ومثل ذلك حدث في الدولة العظمى: الاتحاد السوفياتي ، حيث فعلت في كثير من الدول الشرقية ما لا تفعله الوحوش في الغابات ، وفعلت في المقاطعات الإسلامية أكثر من ذلك ، حيث حوّلت غالبية المساجد إلى إصطبلات للخيل ، وبعضها إلى مستودعات لخمرة (الفودكا)!! .

ودار الزمن دورته وإذا بالانهيار المروع يحدث في تلكم الدول التي تُدعى بالعظمى ، وإذا بالاتحاد السوفياتي العظيم يضطر إلى بيع غالبية أرصده الذهبية من أجل أن يشتري بها قمحاً لشعبه! .

ثانياً: سيكون مصير أمريكا وإسرائيل الهلاك:

انفردت الولايات المتحدة الأمريكية ومن خلفها إسرائيل بالقضية العالمية ، والسؤال الملح هنا: هل تُطبّق سنن الله - وخاصة التبديل - في دولة الشيطان الأكبر (أمريكا) ، وفي دولة الغدة السرطانية (إسرائيل) ، وعند ذلك يتحقق الجزء الأخير من الآية ، وهو قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [المرسلات: ١٨] ؟!

لقد مرّ معنا أن أهم أسباب هلاك الأمم والحضارات هي: عبادة غير الله ، وتكذيب الرسل ومحاولة قتلهم ، والعتو والاستكبار في الأرض ، وإتيان الفواحش والموبقات ، وهذه أمور بارزة على السطح في كلتا الدولتين: أمريكا وإسرائيل! .

والعجيب أن اليهود ومنذ اكتشاف أمريكا ثم استقلالها عن بريطانيا، عمدوا إلى إقامة مجتمع جديد لهم هناك ، ثم عمدوا إلى التركيز على الإعلام والاقتصاد لتكون لهم اليد القوية في اتخاذ القرار في أمريكا ، وساعدوا في إنشاء عصبة الأمم ثم الأمم المتحدة ، ثم عمدوا إلى إشعال الحرب الأهلية بين أهل الشمال وأهل الجنوب في أمريكا ، وكان الهدف من تلك الحروب إبادة الشعب الأمريكي المسيحي كي يحل محله اليهود ، وبالفعل كانت الهجرة ، من النمسا وغيرها . ثم نقلوا مراكزهم المالية والإعلامية إلى مدينة نيويورك ، وسيطروا على صناعة السينما والأفلام والصحافة والسياسة الخارجية والداخلية ، وأقدموا على احتكار معظم الصناعات الهامة ، مثل: صناعة السكر والقطن وغيرها .

وتدخلوا في أمور البورصة وأسعار الذهب ونحو ذلك .

وبرزت عائلة روتشيلد اليهودية ، حيث لما حضرت الوفاة (أمشيل روتشيلد) جمع أبناءه الذكور الخمسة ، وقرأ عليهم من التلمود ،

وقال لهم: «تذكروا يا أبنائي أن الأرض جميعها ينبغي أن تكون ملكاً لنا نحن اليهود، وأن غير اليهود حشرات يجب أن لا يملكو شيئاً»! ..

وقام اليهود بتأليف (بروتوكولات حكماء صهيون)، وراحوا ينشرون (الماسونية) ووصل الحال بهم إلى أنهم وضعوا على ورقة الدولار - فئة دولار واحد - شعار الماسونية، وهو عبارة عن شكل هرم يعلوه عين آدمي، وعلى الجانب الأيمن لظهر الدولار توجد النجمة السداسية نجمة داود الشهيرة مكونة من (١٣) نجمة هم الأسباط الاثنا عشر أبناء يعقوب عليه السلام، بالإضافة إلى السبط الجديد وهم الخزر الذين هم يهود العصر الحديث الذين يحكمون إسرائيل اليوم!.

إذن: هلاك أمريكا وإسرائيل أمرٌ حتميٌّ: ومن الأدلة على ذلك حديث القرآن الكريم عن قوم عاد الأولى، ثم تركيزه على عاد الثانية وهي التي تشبه الأولى بالاستكبار في الأرض، وتكذيبهم رسل الله، وجحودهم بآيات الله ونعمه، وبادعائهم أنهم القوة الوحيدة في العالم. ففي سورة فصلت يقول تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً أَوَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [فصلت: ١٥-١٦].

وفي سورة هود يقول سبحانه: ﴿وَتِلْكَ عَادُ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: ٥٩].

وما دمنا نعتقد أن الله جنوداً لا يعلمها إلا هو، وهي كثيرة، كالطوفان والملائكة وغيرها، وبالتالي فالذي دمر الأمم الظالمة السابقة هو سبحانه الذي يستطيع أن يزيل أمريكا وإسرائيل ومن لفّ لفهم بأمثال ذلك، أي بآية من آياته سبحانه، فأمره بين الكاف

والنون ، ولا يظنن أحدٌ أن أمريكا اليوم على جبروتها وعلى ما تملك من ترسانات سلاح ، أنها الرب في هذا الكون ! .

فقد مرّ على هذه الأرض من هو أقوى من أمريكا وإسرائيل ، مصداق ذلك قوله سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا ﴾ [الروم : ٩] .

ومثل ذلك في ما يسمى دولة إسرائيل ؛ فقد نقضوا العهود والمواثيق ، وكذبوا الرسل وقتلوا الأنبياء ، وادّعوا الباطل ، وافتروا على الله سبحانه ، واستغرقوا في المال الحرام الناتج عن الربا وغسيل الأموال وبيوتات الدعارة و... ! .

ولذلك لا بدّ أن نهاية إفسادهم قد اقتربت ، قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَئِهِمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴾ [الإسراء : ٥] .

وقد يكون الوعد الأول الذي حدث فيه الدمار الأول أيام (بختنصر البابلي) ، وقد يكون زمن الرسول ﷺ ، حيث أجلاهم من الجزيرة العربية ، وأما الدمار الثاني فهو الذي قال الله عنه : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ [الإسراء : ٦] .

أي : سيأتي يوم تعلقو فيه إسرائيل ، وتصبح أكثر مالاً وجنوداً ، وأكثر هيبة ، وستصبح القوة الضاربة المرعبة ، لكن ذلك الاستعلاء لن يطول بإذن الله ، قال تعالى : ﴿ إِنِ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرُوا مَا عَلِمُوا نَبِيرًا ﴾ [الإسراء : ٧] .

ولعلنا بإذن الله نشهد سقوط دول الظلم والجور ، وعلى رأسهم الكيان الصهيوني الغاشم ، وذلك على يد ﴿ عِبَادًا لَنَا ﴾ سواء كانوا جماعة حماس أو الجهاد الإسلامي أو حزب الله ، المهم أنهم جماعة

الأيدي المتوضئة ، والعجاء الساجدة ، وجماعة صيحات : الله أكبر . .
حي على الجهاد . . يا رياح الجنة هبي . . غداً نلقى الأحبة محمداً
وحزبه .

وما ذلك على الله بعزيز ، وصدق الله سبحانه عندما قال : ﴿ وَلَقَدْ
كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾
﴿ ١٠٥ ﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَعًا لِقَوْمٍ عَكِيدِينَ ﴿ ١٠٦ ﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿ ١٠٧ ﴾ .
[الأنبياء : ١٠٥ - ١٠٧] .

* * *

الخاتمة

أحسن الله ختامنا أجمعين

في أواخر سورة يوسف ، وبعد الانتهاء من قصة يوسف عليه السلام ، توجه الخطاب الإلهي إلى خاتم الأنبياء محمد ﷺ ، ليرسم قانون إهلاك الأمم ، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٩] حَقَّ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوَّامِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١١﴾ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١١٠﴾ [يوسف: ١٠٩-١١١].

ولذلك فالجميع مطالبون أن يسيروا في الأرض ، ويتوقفوا عند آثار السابقين ، ليعتبروا بما حدث لهم ، ويتذكروا أن القانون الإلهي الذي طُبِّقَ عليهم قابلٌ للتطبيق على أي أمة تسير على ما كان عليه أولئك الناس ، حيث العصيان والتكذيب والفسق والفجور! وما أكثر العبر في هذا الكون! . . لكن - وللأسف - ما أقل المعبرين! .

مثال آخر: في أوائل سورة الحشر حديث عن اليهود الذين كانوا يقطنون المدينة المنورة ، لكن لما تأمروا على المسلمين ، وطمغوا في البلاد ، وأكثروا فيها الفساد ، عند ذلك طُردوا إلى غير رجعة ، المهم أن تلکم الحكايات ليست من باب التسلية ، إنما هي للعبير والاعتاظ ، قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾

مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُوا أَنَّهُمْ مَارِعَتْهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يٰٓأُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ [الحشر: ٢].

هذا هو الهدف - الاعتبار - من قراءة التاريخ ، ومن زيارة الأماكن الأثرية ، ومن الحديث عما جرى للسابقين :

ولي في فناء الخلق أكبر عبرة لمن كان في بحر الحقيقة راقياً
شخصاً وأشكالاً تمر وتنقضي فتفنى جميعاً والمهيمن باقياً

الكون مليء بالآثار.. والآثار فيها المواعظ والعبر ، لذا إذا زرت
قصرأ قديماً ووقفت عند عجائبه ، تذكر أين من شاد؟ .. وأين من
حكم؟ .. وأين من ظلم؟ ثم عد إلى نفسك ترى العبر.. وتسمع
الهمسة الروحية.. وعندئذ ردّد:

لا تركننّ إلى القصور الفاخرة واذكر عظامك حين تمسي ناخره
وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل يا رب إن العيش عيش الآخرة

وإذا قيل لك: فلان يتكبر على عباد الله بماله ، فقل: ولكن أين
مال هذا من مال قارون؟! لقد أطغاه المال فانقلب من رجل مؤمن إلى
كافر متكبر ، فخسف الله به وبألماله ، وعند ذلك أصغي إلى ما في
داخلك ، تسمع صوت الواعظ:

يا نفس توبي فإن الموت قد حانا واعصي الهوى فالهوى ما زال فتانا
يا نفس مالي وللأموال أكنزها خلفي وأخرج من دنياي غريانا

وإذا قيل لك: لكن هذا الكلام ينطبق على الأمم السابقة ، أما
اليوم فهناك القطبية الواحدة ، وفي ظلال العولمة ، فأمريكا تعربد في
العالم ، وتتهم من تشاء بالإرهاب ، وتفرض عقوبات على من تشاء
و...!!

الجواب في القرآن الخالد: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا

وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ [يونس : ١٣ - ١٤].

وهذا ما يشهد به التاريخ : ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنَّ اللَّهَ بَيَّنَّاهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَنْهَضَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ﴿١٣﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١٤﴾ [النحل : ٢٦ - ٢٧].

لكن نحن يهّمنا كيف الخلاص من الظلم والاستكبار؟

﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴾ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُنْعِيهِمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ [المرسلات : ١٦ - ١٨].

لكن متى يكون ذلك؟

﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل : ١].

نسأل الله تعالى أن يجعلنا نعتبر بغيرنا ، لا أن يجعلنا عبرة لغيرنا ، وأن يجعل خاتمة أعمالنا القول الثابت في الحياة الدنيا .

وصلى الله على خاتم الأنبياء محمد ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وصحابته الغر الميامين ، وعلى من سار على الدرب إلى يوم الدين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

* * *

obeikandi.com

المصادر والمراجع

- تفسير القرآن العظيم ، الحافظ ابن كثير ، ط ٢ ١٩٦٦ م ، دار الأندلس ، بيروت .
- الجامع لأحكام القرآن ، الإمام القرطبي ، ط ١ ١٩٩٥ م ، دار الفكر ، بيروت .
- شرح صحيح مسلم ، الإمام النووي ، ط ٣ (د.ت) ، دار القلم ، دمشق .
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، القاضي عياض ، مكتبة الفارابي ، دمشق (د.ت) .
- قصص الأنبياء ، الحافظ ابن كثير ، ط ١ ١٩٩٢ م ، دار ابن كثير ، دمشق .
- تفسير الشعراوي ، الشيخ محمد متولي شعراوي ، ط ١ أخبار اليوم ، مصر (د.ت) .
- سيرة سيد الأنعام ، الدكتور محمد عمر الحاجي ، ط ١ ١٩٩٨ م ، دار الحافظ ، دمشق .
- الإصابة في تمييز الصحابة ، الحافظ ابن حجر العسقلاني ، ط ١ ١٩٩٣ م ، دار الجيل ، بيروت .
- البداية والنهاية ، الحافظ ابن كثير ، دار الكتب العلمية ، بيروت (د.ت) .

- المحاور الخمسة للقرآن الكريم ، الشيخ محمد الغزالي ، دار
الصحوة ، الجزائر (د.ت).
- زاد المعاد في هدي خير العباد ، الحافظ ابن قيم الجوزية ، ط ١
١٩٧٩ م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت.
- قصة الحضارة ، ول وإيريل دي ورائت ، دار الجيل ، بيروت
(د.ت).
- فح العولمة ، هانس بيتر مارتين ، ترجمة عدنان علي ، ط ١
١٩٩٨ م ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت.
- تاريخ الأمم والملوك ، الإمام الطبري ، دار سويدان ، بيروت
(د.ت).
- الطبقات الكبرى ، الإمام ابن سعد ، ط ١ ١٩٩٠ م ، دار الكتب
العلمية ، بيروت.
- تفكر ساعة ، الدكتور محمد عمر الحاجي ، ط ١ ١٩٩٦ م ، دار
النور ، دمشق.
- أسباب هلاك الأمم والحضارات في سورة الأعراف ، عبد الحميد
طهماز ، ط ١ ١٩٩٢ م ، دار القلم ، بيروت.
- أثر المعاصي والذنوب في الأفراد والشعوب ، السيد عسكر ، ط ١
١٩٩٢ م ، (د.م).
- أسباب هلاك الأمم وسنة الله في القوم المجرمين ، عبد الله التليدي ،
ط ١ ١٩٨٦ م ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت.

* * *

المحتوى

تمهيد ٥

الباب الأول ما قبل الإهلاك

- الفصل الأول: الإنذار قبل الإهلاك ١١
أولاً: من سورة الشعراء ١٢
ثانياً: من سورة القصص ١٦
الفصل الثاني: الإهلاك تدخل إلهي ١٩
أولاً: من سورة إبراهيم ١٩
ثانياً: من سورة الأنفال ٢٢

الباب الثاني أسباب الإهلاك

- الفصل الأول: تكذيب الرسل ٣١
المطلب الأول: إطلالة على حياة الأنبياء والرسل عليهم السلام ٣١
- أهم وظائف الرسول ومهامه ٣٢
المطلب الثاني: نماذج من تكذيب الناس للرسل ٣٣
١ - من سورة القصص ٣٣

٣٦	٢ - من سورة هود عليه السلام
٤١	الفصل الثاني : الاستهانة بالوعيد
٤١	أولاً: قصة ثمود مع النبي صالح عليه السلام
٤٣	ثانياً: قصة بني إسرائيل مع نبي الله موسى عليه السلام
٤٣	ثالثاً: مع نبي الله شعيب عليه السلام
٤٧	الفصل الثالث : الانغماس في الترف
٤٧	أولاً: قارون وعاد وسبأ وعاقبة ترفهم
٤٩	ثانياً: الترف في دولتي فارس والروم
٥١	ثالثاً: الترف في دولة الأندلس الإسلامية
٥٢	رابعاً: الترف في دولة بني العباس
٥٤	خامساً: عهود الترف في العالم العربي
٥٥	سادساً: الترف في الدول الغربية
٥٦	سابعاً: نموذج من الترف الحديث
٥٨	ثامناً: حديث ابن خلدون عن الترف
٥٩	تاسعاً: آثار الترف وصوره
٦٥	الفصل الرابع : انتشار الفساد وكثرة المفسدين
٦٥	أولاً: معنى الفساد
٦٦	ثانياً: أهم أشكال الفساد في العالم الإسلامي
٦٧	ثالثاً: الفساد أحد أسباب هلاك الأمم
٧٠	رابعاً: أدوات الفساد
٧٠	خامساً: الآثار الوخيمة للفساد
٧٠	سادساً: الحلول المقترحة لمحاربة الفساد

الباب الثالث

ما أكثر العبر.. وما أقل المعتمرين!

- ٧٣ الفصل الأول: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهِمْ وَنُسُلِهِمْ لَئِيْلٌ﴾ ٧٣
أولاً: قصة الطاغية فرعون ٧٣
ثانياً: قارون طاغية المال ٧٤
ثالثاً: أصحاب القرية ٧٥
رابعاً: ترك بقايا وآثار المهلكين للعبرة ٧٥
٧٧ الفصل الثاني: ﴿ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ ٧٧
أولاً: أسباب النكبات ٧٧
ثانياً: دور صلاح الدين في الأمة ٧٨
٨١ الفصل الثالث: ﴿كَذَلِكَ نَفْعِلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ ٨١
أولاً: عاقبة المجرمين (انهيار الاتحاد السوفياتي) ٨١
ثانياً: سيكون مصير أمريكا وإسرائيل الهلاك ٨٢
٨٧ الخاتمة ٨٧
٩١ المصادر والمراجع ٩١
٩٣ المحتوى ٩٣

* * *

هذا الكتاب

لما خلق الله الخلق وأمدَّهم بالعقل والمعرفة والنعم ، شرفهم بحمل أمانة الدين والأخلاق وكانت هي عين التكريم والرفعة . وقد كان من هؤلاء من أدى الأمانة ونصح الله ولخلقه فكانت عاقبته الحسنى في الدنيا والمنزلة العالية في الجنة .

وأما من خان أمانة الله ومَرَدَ عليها واتخذها وراءه فقد قاده إلى الهلاك والخسران في الدنيا والآخرة .

وهذا الكتاب «هلاك الأمم» رصد لهذه الظاهرة؛ ظاهرة التمرد على أمر الله عبر العصور ، وما كان من أصحابها وما جرَّت عليهم من الويل والثبور والهلاك .

وما ذلك إلا لنكون على بينة من أمرنا ولنتخذ طريقاً مع الصالحين يبتعد بنا عن مهاوي الخزي والشنار وعاقبة السوء .